

محمد الغزالي





عند خاتم الأنبياء

دار الشروق




فن الذكر والدعاء
عند خاتم الأنبياء

الطبعة الأولى
١٤١٩هـ - ١٩٩٨م

الطبعة الثانية
١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

© دار الشروق
أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى -
رابعة العدوية - مدينة نصر
ص . ب : ٣٣ البانوراما - تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩
فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
البريد الإلكتروني: email: dar@shorouk.com

محمد الغزالي



دار الشروق



مقدمة

نحن المسلمين نعرف ربنا معرفة صحيحة، ونعترف بحقوقه اعترافًا كاملا، ونضم إلى هذا وذاك شيئًا آخر، أن الارتفاع إلى مستوى عبوديته يتطلب قدرًا كبيرًا من الطهر والشرف والأدب . . !!

ولنشرح هذه الكلمات بإيجاز . .

هناك من ينكر الألوهية، وفى عالمنا جماهير كثيفة ودول مسلمة تقوم على الإلحاد . .

لكننا نحن المسلمين نصحو وننام، ونغدو ونروح، وفى أعماقنا إحساس بأن قلوبنا تدق، وعيوننا تبصر، وأيدينا تتحرك بقدرة اللّه، إحساس بأن الليل يدبر، والصبح يتنفس، والكون كله يدور وفق قوانين محكمة بقدرة اللّه . .

البون بعيد بعيد بيننا وبين الملحدين .

وهناك من يعرف الألوهية معرفة رديئة أو مغشوشة، ربما ظنوا أن لله ولدا، أو أن له شريكًا، أو هناك من يعقب على حكمه، أو من يراجع أمره!

وذلك كله يرادف الجهل باللّه، فإن المعرفة لا تصح إلا مع إدراك يوافق الواقع وتتألق فيه الأسماء الحسنى والصفات العلا . . ! وما أكثر الذين لا يعرفون اللّه المعرفة الواجبة، وفى الدنيا جماهير غفيرة من هؤلاء الجاهلين: ﴿وما يؤمن أكثرهم باللّه إلا وهم مشركون﴾ [1] وهناك من يعرف اللّه على قدر ما من الحق، بيد أنه يعطى نفسه حق التصرف بغير هداه، وحق الانطلاق فى الأرض وفق هواه . .

واللّه عز وجل يطلب من خلقه أن ينقادوا له، وأن تقوم علاقتهم به على مبدأ السمع

---

(١) سورة يوسف: ١٠٦ .

والطاعة : ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون * ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون * إن اللّه هو الرزاق ذو القوة المتين﴾[1].

ومعنى ذلك أن رسالة الأحياء على ظهر الأرض التقيد بأمر اللّه، وإبداء الخضوع له.

واللّه شرع لعباده النظام وهم شرعوا لأنفسهم الفوضى، نعم اللّه أمر ونهى، لا لنفع يعود عليه أو لضر يتقيه! إنما هى مصلحة البشر.

وقد تجاهل أناس رسالتهم، ونسوا ربهم، وشرعوا لأنفسهم، فماذا كسبوا؟ كسبوا أزمات الجوع والخوف!! إن الساسة أجهدوا ذكاءهم فى الشرق والغرب حتى درت الأرض السمن والعسل، ثم جمدوا ذلك الخير كله فى أسلحة الدمار الشامل، وبقيت الأمم تلهث وراء الضرورات المضنية.

ألا ما أشأم العصيان وأقل جدواه مهما صاحبه من ذكاء وحضارة. إن نصف الجهد فى تحصيل الأقوات لو بذل فى الأدب مع اللّه وابتغاء رضاه، لكسب الناس الدنيا والآخرة معًا، إننى أنظر إلى الكفاح الوحشى فى كسب الرزق، وإلى كل جبين مقطب، وعين مكسورة، ثم أذكر الحديث القدسى، عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول اللّه تعالى: «يا بن آدم تضرع لعبادتى أملأ صدرك غنى، وأسد فقرك، وإلا تفعل ملأت صدرك شغلا، ولم أسد فقرك».

وأعرف أن بعض الناس قد يسارع إلى إنكار هذا الحديث، يحسب أن المقصود منه العكوف فى المحاريب!

وما درى هؤلاء أن جوهر العبادة إسلام القلب والوجه للّه، ثم تعبر القدم فى ميدان الكدح الشريف دون جزع ولا هوان..

إن العبادة كما هى ضراعة وتسبيح، قدرة على امتلاك الحياة وتسخيرها للّه، ولإعلاء اسمه. بل إن الوعى الصحيح بحقوق اللّه يرتبط بالمعنى الثانى أكثر من ارتباطه بالمعنى الأول. المعنى الأول علم، والمعنى الثانى تدريس لهذا العلم ونشر لحقائقه وجهاد دونه، وهذا عمل الأنبياء ومن سار فى آثارهم...!

والعبودية للّه درجة من الكمال لا تتاح لكل أحد، بل يرشح لها من استجمعوا خصالا معينة.

---

(١) سورة الذاريات: ٥٦، ٥٧، ٥٨.

هناك عارفون بالله، ولكن المعرفة تتفاوت وضوحًا وغموضًا وسطحية وعمقًا.

وهناك مطيعون لله، ولكن الطاعة تتفاوت نشاطًا وكسلا، وخفة وثقلا، وتكلفًا وترحيبًا.

والعبودية الكاملة إنما يحظى بها من أشرق يقينه وطار إلى ربه بجناح من الشوق والحب.

وفى طباع الناس حب لأنفسهم ربما سيطر على مسالكهم كلها، وهؤلاء محجوبون عن الله أبدا، وليس يرقى إلى درجة العبودية إلا امرؤ أحب الله، وأحب فيه، واكترث بشئون غيره، وهش لمصالح الخلق، وضاق بآلامهم..

فى ميدان العلم والدراسة ناس منسوبون لله لأنهم مرتبطون بحقائق الوحى لا يحيدون عنها يساق فيهم قوله تعالى: ﴿ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلِّمون الكتاب وبما كنتم تدرسون﴾[1].

وفى ميدان الجهاد الدامى ناس منسوبون إلى الله يحملون أعباء الكفاح بجلد، ولا ينكشفون تجاه الهزائم المرة، فيهم يقول الله: ﴿وكأيِّن من نبى قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا﴾[2].

إن النفس التى يقول الله لها: ﴿فادخلى فى عبادى* وادخلى جنّتى﴾ نفس من طراز خاص، نفس استراحت إلى الله وتعاليمه، وآثرته على غيره من مغريات المال والجاه، ولم يكن ذلك خاطرا مساورا بل كان صيغة حياة، وتحديد وجهة.

وهذا معنى النداء العالى: ﴿ يأيتها النفس المطمئنة* ارجعى إلى ربك راضية مرضية* فادخلى فى عبادى* وادخلى جنّتى﴾[3].

ذوو الحرمة بيننا يأبون أن يصادقوا مختل الفكر، أو معتل الخلق، أو معوج السلوك، فكيف يرتضى رب العالمين أن ينتسب إليه سقيم العقل، هابط السجايا، مضطرب السيرة؟

إن مقترفى الآثام دون درجة العبودية المرموقة، والجنة مأوى لمن طابت سريرته، واستقامت خليقته، وقويت بالله صلته!!

---

(١) سورة آل عمران: ٧٩.
(٢) سورة آل عمران: ١٤٦
(٣) سورة الفجر: ٢٧، ٢٨، ٢٩، ٣٠.

وما أزعـم العصمة لمن بلغ درجـة العبودية ، فـإن الخطأ طبيعـة الناس ولكن عبـاد اللّه الصالحين إذا أخطئوا مسحوا أخطاءهم بعبرات الندم حتى لا يبقوا لها أثرًا . .

* * *

شغفت بسير العباد الصالحين ، وحاولت أن أقبس منها شعاعًا أستضىء به .

كنت بقلبى مع موسى فى مديـن ، وهو يحس لذع الوحشة والحاجة ويقول : ﴿ رب إنى لما أنزلت إلىّ من خير فقير ﴾[1] .

وكنت مع عيسى وهو يواجه مساءلة دقيقة ويدفع عن نفسه دعوى الألوهية : ﴿ما قلت لهم إلا ما أمـرتنى به أن اعبـدوا اللّه ربى وربكـم وكنت عليهـم شهيدا ما دمـت فيهم فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شىء شهيد﴾[2] .

وكنت مـع إبراهيم وهو بـوادى مكة المجدب يسلـم ابنه للقدر المرهوب ، ويسـأل اللّه الأنيس لأهله : ﴿ربنا إنـى أسكنت مـن ذريتى بـواد غير ذى زرع عند بيتـك المحرم ربنـا ليقيمـوا الصـلاة فـاجعـل أفئـدة من النـاس تهوى إليهـم وارزقهـم مـن الثمـرات لعلهـم يشكرون﴾[3] .

غير أنى انبهرت وتاهت منى نفسى ، وأنا بين يدى النبى الخاتم محمد بن عبد اللّه ، وهو يدعو ويدعو .

لقد شعرت بأنى أمام فن فى الدعاء ذاهب فى الطول والعرض لم يؤثر مثله عن المصطفين الأخيار، على امتداد الأدهار . .

ولسـت فى مقـام مفاضلـة بين أحـد مـن النبيين ، إنها حقيقـة علمية رأيـت إثبـاتها فى صفحات قلائل ، مشفوعة بالدلائل التى تزدحم حولها . .

وقـد نقول : أعلى جبـل فى الأرض جبـل كـذا فى الهند! ومـا نقصـد النيـل من الجبـال الأخرى ، إنه ذكر حقيقة .

قـد نقول : إن الشمـس أكبر مـن القمـر سبعين ألف ألـف مـرة ، ليكـن ، ذاك تقريـر حقيقة .

---

(١) سورة القصص : ٢٤ .
(٢) سورة المائدة : ١١٧ .
(٣) سورة إبراهيم : ٣٧ .

وفى هذا الكتاب سياحة محدودة فى جانب شريف من جوانب السيرة، جانب الذكر والدعاء.

ما فيه من توفيق هو محض الفضل الأعلى، وما قد أخطئ فيه هو رشح نفسى الأمارة بالسوء..

ورجائى أن يقبل ربى هذه الكلمات فى ميزان الحسنات، كما أرجوه- تبارك اسمه- أن يقبل صلواتى على النبى العربى المحمد، وأن يسعدنا جميعًا بشفاعته.

كَيف عَرَّفَنَا محمَّدٌ باللّه

أنا أحد الألوف المؤلفة التى تؤمن بـالله العظيم، وتسبح بحمده، ونقر بجلاله ومجده، وتنتعش بنعمته ورفده.

ولقد عرفت هذا الإله الكبير عن طريق النبـى العربى المحمد، قرأت كتابه، ثم درست سيرته، فتجاوبت فطرتى مع رسالتـه، واستراح فكرى وقلبى إلى دعوته، وأصبحت واحدًا من جماهير ضخمة رضيت بالله ربا وبالإسلام دينًا وبمحمد- عليه الصلاة والسلام- نبيا ورسولاً..

كان فى الناس من لا يعرف الله أصلا، فأنار محمد بصيرته، وقاده من ضميره إلى مولاه.

وكان هناك من يعرفه معرفة فاسدة، يظن له ولدًا يشفع، أو شريكًا ينفع، فجاء محمد- عليه الصلاة والسلام- يقرر عقيدة الوحدانيـة المطلقة، وينفى أن يكون لله ابن أو ابنة، أو ند أو ضد، شبيه فى العظمة أو معقب فى الحكم: ﴿أم اتخذوا من دونه أولياء فالله هو الولى وهو يحيى الموتى وهو على كل شىء قدير* وما اختلفتم فيه من شىء فحكمه إلى الله ذلكم الله ربى عليه توكلت وإليه أنيـب* فاطر السموات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجًا ومن الأنعام أزواجًـا يذرؤكم فيـه ليس كمثلـه شـىء وهـو السميع البصير * لـه مقاليد السموات والأرض يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه بكل شىء عليم﴾[1].

ومعرفة محمد بالله لا تسبقها معرفـة فى الأولين والآخرين، لأنها معرفة تنبع من شهود لا يخبو سناه، ولا يغيـم ضحاه. والمسلم المتأسى بـرسوله يحس أن لهذه المعرفـة سمات خاصة تبدو فى حديثه- عليه الصلاة والسلام- فهى واضحـة صادقة حارة نفاذة، نعم لا غموض ولا افتعال، فى حديث هذا النبى عن الله، وفى ربط الناس به.

---

(١) سورة الشورى: ٩ ـ ١٢.

وللكلام الإنسانى درجة حرارة معينة يموت دونها فلا يترك أثرًا، ولا يبلغ هدفًا، وعندما يذكر محمد ربه راغبًا أو راهبًا يشتد النبض فى الكلمات المناسبة، وتحتد العاطفة فى المشاعر الحارة فلا يملك قارئ أو سامع إلا أن يخشع ويستكين لله رب العالمين . .

كنت أتابع يومًا درسًا فى علم الأفلاك حيث تقفز الأعداد إلى شطحات تسبق الخيال، وتقاس المسافات بأرقام تنقضى قبل إحصائها الآجال . .

وتضاءلت فى نفسى، ثم عدت إلى مواقع الأقدام من أرضى. ونظرت إلى ما تحت الثرى، وعلمت أنى لا أدرى، ولا أرى.

ترى ما هناك فى أعماء هذه الكرة حتى النقطة المكشوفة من سطحها فى الجانب الآخر؟ أشياء كثيرة نجهلها كل الجهل، قلت: لكن الله وصف نفسه فقال: **﴿الرحمن على العرش استوى* له ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى * وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى * الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى﴾**[1] إن اللمعة المضيئة عند سدرة المنتهى كالحبة المستخفية فى ظلمات الأرض، سواء فى علمه- تبارك اسمه- وهو علم مسطور فى سجل بين دقيق . . !!

وملأت أقطار نفسى عاطفة إعجاب بهذا الخالق الأعلى، بيد أن الكلمات المعبرة تقاصرت ثم احتسبت، وشاء ربى أن يلهمنى ترديد كلمات تنفس عما بى، فإذا الكلمات المعبرة فى حديث رواه على بن أبى طالب يصف صلاة النبى الكريم جاء فيه « . . وإذا ركع يقول فى ركوعه: اللهم لك ركعت وبك آمنت ولك أسلمت، خشع لك سمعى وبصرى ومخى وعظمى وعصبى[2] وإذا رفع رأسه من الركوع يقول: سمع الله لمن حمده، ربنا ولك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء ما بينهما وملء ما شئت من شىء بعد[3] وإذا سجد يقول فى سجوده: اللهم لك سجدت وبك آمنت ولك أسلمت، سجد وجهى للذى خلقه وصوره وشق فيه سمعه وبصره تبارك الله أحسن الخالقين»[4].

فى هذه المناجاة ترى الألوهية الكاملة والعبودية الكاملة . .

---

(١) سورة طه: ٥ ـ ٨.

(٢، ٣، ٤) رواه أحمد ومسلم وأبو داود والترمذى.

بين يدى بديع السموات والأرض يجثو عابد ملهم، فيهمس فى ركوعه وسجوده بكلمات تصور ما ينبغى أن ينطق به كل فم تحية لذى الأسماء الحسنى!!

إن المسلم الأول- وهذا ترتيب محمد بين النبيين والصديقين والشهداء والصالحين- له فن فى الذكر والشكر والإنابة والدعاء لم يحفظ مثله لبشر، وسنلقى نظرة على ما أثر عنه- عليه الصلاة والسلام- لنجلو هذه الحقيقة..

رجعت البصر فى كتب مقدسة لأديان أخرى، فوجدتها كلها دون ما حوى القرآن الكريم من إعظام لله، وتفصيل لأمجاده ومحامده، لقد ذكر القرآن أسماء اللّه الحسنى مئات المرات فى تضاعيف قصصه وتشريعه ووصفه لمشاهد الكون، ومشاهد البعث، ورفض أن يكون الثناء على اللّه نظريًا لا يتحرك به فؤاد ولا يرقى به سلوك. ثم ترجم النبى العابد محمد عليه الصلاة والسلام هذا المنهج فى نواحى حياته كلها فصار إنسانًا ربانيًا ترنو بصيرته إلى اللّه ويباشر كل شىء فى الدنيا باسمه، كأنه منه على مرأى ومسمع. إن الغنى باللّه لا تدنيه مشاعر الرغبة والرهبة، والقوى باللّه لا تقلقه أعداد القلة والكثرة، والمراقب للّه تستوى عنده الخلوة والجلوة، وطالب الآخرة لا تستخفه مآرب الحياة الدنيا.

وقد كان محمد- عليه الصلاة والسلام- عامر القلب بربه، عميق الحس بعظمته، وكان ذلك أساس علاقته بالعباد ورب العباد.

واسمع إليه فى هذا الدعاء الجامع: «اللهم بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق، أحينى ما علمت الحياة خيرًا لى، وتوفنى إذا علمت الوفاة خيرًا لى.

اللهم إنى أسألك خشيتك فى الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الحق فى الرضا والغضب، وأسألك القصد فى الفقر والغنى وأسألك نعيما لا ينفد، وأسألك قرة عين لا تنقطع.. وأسألك الرضا بعد القضاء. وأسألك برد العيش بعد الموت. وأسألك لذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك، فى غير ضراء مضرة، ولا فتنة مضلة».

«اللهم زينا بزينة الإيمان واجعلنا هداة مهتدين..»

ومن مجون الناس أن يقول فريق منهم: كان محمد مدعيًا للنبوة.. وَيْحَكُم!!! فأين الصدق إذن؟

إن فم بشر من أزل الـدنيا إلى أبدها لم يناج اللّـه بأشرف من هذا الكلم، ولم يتـوجه إليه بأحر من هذه الضراعة: من يكون صادقًا إن كان محمد مزورا؟

والـواقع أن المكـذبين لمحمد فى درك مـن العجـز الفكرى والـروحى يعيـى الحلماء، إن تحديثهم عن محمد كتحديث الهوام عن الكواكب السيارة ﴿والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمًى أولئك يُنادَون من مكان بعيد﴾[1].

---

(١) سورة فصلت: ٤٤

الحب أساسه والشوق مركبه

محنة البشر أنهم مكلفون بالارتقاء إلى الملأ الأعلى على حين أنهم خلقوا من حمأ مسنون .

وهم ليسوا مكلفين أن يكـونوا ملائكة ، فهيهات مـا داموا محكومين بأجهـزة هذا الجسد ومطالبه المتجددة .

هم مكلفون أن يقاوموا الإسفاف بالتسامى ، والنسيان بالذكر، والأثرة بالأخوة .

هـم مكلفون- بعـدمـا وهبوا الحيـاة- أن يجعلـوهـا لله ، فـلا تكـون أنفسهم شغلهـم الشاغل ، بـل يكون واهب الحياة أملهم الماثل ، ومـا فرضه هو مصدر نشـاطهم ، وأساس حراكهم وحماسهم . . ! !

وفى هذا الكـلام إجمال يحتاج إلى إيضـاح ، إن الملائكة لا تـأكل ، ولا تتكلـف زرعًا ولا حصادًا ، والبشر الذين يأكلون يضاهئون الملائكة تمامًا لو أنهم زرعوا وحصدوا وأكلوا باسم الله .

ووقتهم المبذول فى ذلك كله يساوى وقـت الملائكة المبذول فى التسبيح والتحميد إذا هم لحظوا قدرة الله فى الإنبات والإنضاج ، وفضله فى الإطعام والكسوة والمأوى . .

وقد بعث الله رسله من بدء الخليقة ليسيروا بالأمـم على هذا الدرب ، لم يبعثهم ملائكة ، لأنه لا علاقة للملائكة بهذا النوع من التكاليف .

وقد عجب الجاهليون من ذلك وقالوا : **﴿أبعث الله بشرًا رسولا * قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنـزلنا عليهم من السماء ملكًا رسولا * قل كفى بـالله شهيدًا بينى وبينكم إنه كان بعباده خبيرًا بصيرًا﴾** [1] .

---

(١) سورة الإسراء : ٩٤ـ٩٦ .

والنبـى العربـى الخاتم ضرب مـن نفسـه المثل فى إمكـان أن يعيش البشر على مستـوى الملائكة ذكـرًا للّه وشكرًا، والأفـق الذى رفع النـاس إليه لا تلمح فيـه إلا صفوف المصلين المسبحين بحمد ربهم، أو صفوف المجاهدين الذين بذلوا فى ذات اللّه أنفسهم وأموالهم . .

نعم إن محمدًا أنشأ جيلا من الناس يباهـى اللّه بهم ملائكته، لأنهم قطعوا كل الجوانب الأرضية وكـل إغراءات هـذه الدار العـاجلة، ومشوا وراء نبيهـم المتفانـى فى مرضـاة ربه، الناشد لوجهه وحده، المرتبط بهذه الكلمات النقية: **﴿قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين* لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين﴾**[1].

لا يعرف محمـدًا صلى اللّه عليه وسلـم من احتبس فى سجن الـدنايا أو قعـد عن نصرة الحق والخير.

وينابيع الحياة العاطفية والفكرية فى نفس الـرسول الكريم «محمد» بن عبداللّه تجىء من معرفتـه الساطعـة باللّه، وذكـره الدائم لـه، وأخذه بنصيبه الضخـم من معـانى الكمال فى أسمائه الحسنى .

ذلك أن اللّه خلق آدم على صورته، واستخلفه فى هذه الأرض ليكون نائبًا عنه، ومكنه، بـل كلفـه، أن ينشط فى استغـلال خيرهـا وامتـلاك أمـرها وأوصـاه أن يحترم أصلـه الإلهى العريق، فلا يتدلى عنه إلى نزعات الطين ووساوس الشياطين .

يجب أن يكون عالمًا ماجدًا، قادرًا كريمًا، رحيما منعما، وهـابًا إلى آخر ما ترمز إليه أسماء اللّه الحسنى من صفات الكمال، وشارات العظمة والجمال .

والعالم- من أزله إلى أبـده- لا يعرف إنسانًا استغرق فى التأمـل العالى ومشى على الأرض وقلبه فى السماء، كما يعرف فى سيرة محمد بن عبداللّه صلى اللّه عليه وسلم .

إنه خير من حقق فى نفسه . وفى الذين حوله حياة الإنسان الكامل .

الإنسان الربانى المستخلف فى ملكوت اللّه، لينقـل إليه أطرافًا من حقيقة هذه الخلافة الكبيرة .

وفى المواريث العقلية والعـاطفية التى تركها هـذا النبى الكريم، ترى كـل العناصر التى يستطيع بها أى إنسان أن يقوم بوظيفته الصحيحة فى الحياة . .

(١) سورة الأنعام: ١٦٢ـ١٦٣ .

انظر إلى قوة العاطفة ودفقها فى هذه المناجاة الحارة :

روى الإمام أحمد وأبو داود والنسائى عن زيد بن أرقم أن النبى صلى اللّه عليه وسلم كان يقول دبر صلاته :

« اللهم ربنا ورب كل شىء» .

«أنا شهيد أنك الرب وحدك ، لا شريك لك» .

«اللهم ربنا ورب كل شىء ، أنا شهيد أن محمدًا عبدك ورسولك»

«اللهم ربنا ورب كل شىء ، أنا شهيد أن العباد كلهم أخوة» .

«اللهم ربنا ورب كل شىء ، اجعلنى مخلصًا لك وأهلى ، فى كل ساعة من الدنيا والآخرة» .

«يا ذا الجلال والإكرام ، اسمع واستجب» .

«اللّه الأكبر الأكبر، نور السموات والأرض» .

«الله الأكبر الأكبر، حسبى اللّه ونعم الوكيل» .

«اللّه الأكبر الأكبر» .

إن ألفاظ اللغة حين تعجز عن ملاحقة هذا الجيشان المنساب فى كل دعوة تجعل الرسول المنيب المتعبد يلجأ إلى التكرار فى العبارة الواحدة لينفس عما استكن فى صدره من روعة ومحبة و إجلال .

إنه فى ظاهره ترداد للفظ واحد ، وهو فى باطنه تعبير عن معان متجددة من الولاء والهيام .

ويستوقفك فى هذا الدعاء أن تتوسط شهادة النبى لشخصه بالرسالة ، بين توحيد الله ، والإقرار بأن العباد كلهم أخوة .

ما معنى أن يقول محمد لربه : «أشهد أن محمدًا عبدك ورسولك»؟

ذلك ضرب من الإصرار على تحمل الأمانة و إبلاغ الرسالة للناس كافة مهما كذبوا بها ، وتنكروا لصاحبها .

* * *

أربع وعشرون ساعة من حياة عريضة

لنتأمل فى هذه الصورة، صورة يوم واحد من حياة نبى الإسلام.

لقد صحا من نومه قبل الفجر بيقين، وظلمة الليل لا تزال مخيمة على كل شىء، إنه يتحرك مع طلائع الصبح المقبل قائلا: «الحمد لله الذى رد إلى روحى، وعافانى فى جسدى، وأذن لى بذكره».

انظر كيف يستقبل الحياة بترحاب وتفاؤل: «الحمد لله الذى رد إلى روحى».

إن العمر الذى ملكناه نعمة نحمد الله عليها، وينبغى أن نحسن استغلالها. إن الحياة فرصة النجاح لمن أراد النجاح، ولذلك امتن الله بالشروق والغروب على عباده: ﴿**الله الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرًا إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون**﴾[1].

وعظمة الحياة فى العافية. ما أجمل أن يكون المرء سليم البدن، تنهض أجهزته وعضلاته بوظائفها كلها دون إعياء أو ملال، إن المسلم عندئذ ينطلق فى كل أفق ليؤدى واجباته باقتدار ورغبة. وذلك سر حمد الله على العافية المتاحة..

ونقف طويلا عند قول الرسول: «وأذن لى بذكره». أرأيت أدب العبودية فى شمائل العابد الرقيق؟ إن منحه يومًا جديدا إيذان له باستئناف العبادة من مطلع الفجر.

ويبدأ العبد الشكور بذكر ربه بكلمات يقطر اليقين والحب من كل حرف فيها، يقولها فى الصباح والمساء على سواء «اللهم إنى أسألك العافية فى الدنيا والآخرة، اللهم أسألك العفو والعافية فى دينى ودنياى وأهلى ومالى، اللهم استر عوراتى وآمن روعاتى، اللهم احفظنى من بين يدى ومن خلفى وعن يمينى، وعن شمالى، ومن فوقى، وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتى».

---

(١) سورة غافر: ٦١.

قال أبو بكر الصديق رضى اللّه عنه قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم لى : «قل إذا آصبحت وإذا أمسيت : اللهم عالم الغيب والشهادة ، فاطر السموات والأرض ، رب كل شىء ومليكه ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أعوذ بك من شر نفسى ، وشر الشيطان وشركه» وفى رواية : «وأن اقترف على نفسى سوءا ، أو أجره إلى مسلم» .

مع طلائع اليوم المقبل يقول الرسول هو وأصحابه : «أصبحنا على فطرة الإسلام وكلمة الإخلاص ، وعلى دين نبينا محمد ، وعلى ملة أبينا إبراهيم حنيفا ، وما كان من المشركين» .

وإقرار الأصحاب والأتباع أنهم على دين نبيهم محمد ظاهر، فما معنى أن يقول ذلك النبى نفسه؟ لقد تكرر فى أدعية كثيرة أن يشهد الرسول لنفسه بالنبوة ، أو بأن محمدا حق .

وأرى أن ذلك لمقاصد حسنة منها : أنه أول ملتزم بتنفيذ ما جاء به ، فكثير من أهل الدين ورؤسائه يحسبون الدين بلاغًا للآخرين وتكليفًا . . أما هم ففوق المساءلة به .

ومنها مراغمة الكفار والمنكرين الشانئين ، وجعل ذلك حقيقة لا تنال منها الشبهات والأوهام . .

ومنها استشعار نعمة اللّه على صاحب الرسالة ، وإبراز الرضا والسعادة بها شكرًا للّه الذى اصطفى .

وقد كان القلب الشريف يجيش بمشاعر التقدير والإعظام لفضل اللّه منذ يصبح ، ويترجم عن ذلك بكلمات رائقة : « اللهم ما أصبح بى من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك ، فلك الحمد ، ولك الشكر» .

«اللهم إنى أصبحت منك فى نعمة وعافية وستر، فأتمم نعمتك على وعافيتك ، وسترك فى الدنيا والآخرة» .

وروى أبو هريرة أن رسول اللّه قال : «ما من رجل ينتبه من نومه فيقول : الحمد للّه الذى خلق النوم واليقظة ، الحمد للّه الذى بعثنى سالمًا سويا ، آشهد أن الله يحيى الموتى وهو على كل شىء قدير. . إلا قال اللّه تعالى : صدق عبدى» . .

وجميل أن يثنى المرء على مالك الملك ، فيستمع اللّه إلى الثناء المهدى ، ويقبله بالتصديق ، ونسبة القائل إلى عبادته ، يقول عنه : صدق عبدى . .

وعن أبى مالك الأشعرى أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال : « إذا أصبح أحدكم فليقل : أصبحنا وأصبح الملك للّه رب العالمين ، اللهم إنى أسألك خير هذا اليوم ، فتحه

ونصره ونوره وبركته وهداه، وأعوذ بك من شر ما فيه، وشر ما بعده. ثم إذا أمسى فليقل مثل ذلك». إن الناس يعيشون داخل كهف معتم من همومهم الحقيقية، أو المتخيلة.

وإنه لمحزن أن عقولا ذكية لا ترى أبعد من جدران هذا الكهف، وأن قلوبًا فياضة بالأسى لا تحس إلا ظلمته، وضيقه.

إن الرسول العارف بربه يستنكر هذا الانقطاع المخزى فيقول: «ما من صباح يصبح العباد إلا مناد ينادى: سبحان الملك القدوس- وفى رواية- إلا صرخ صارخ: أيها الخلائق سبحوا الملك القدوس».

أكاد أقول: إن فؤاد محمد وحده، وهو الذى أصاخ إلى صوت الصارخ المهيب بالبشر أن يمزقوا حجب الغفلة، وأن يثوبوا إلى الملك القدوس..

وافتنانه صلى اللّه عليه وسلم فى التذكير هو أثر استغراقه فى الذكر، ورؤيته لذى الجلال.

وجمهور الفقهاء لا يلزم الأمة بترديد الأذكار والأدعية التى نقلناها وننقلها هنا، إن ترديدها مستحب وحسب، وهذا صحيح.

بيد أنى أرى طول التأمل فى هذه الأذكار والضراعات لابد منه حين يعتل القلب، وتضعف باللّه علاقته، فإن أثرها قوى فى تعريف المرء بربه، وتبصيره بمعانى الأسماء الحسنى.

إن الإيمان الغامض قليل الجدوى، والإيمان الفاتر أعجز أن يهيمن على السلوك، أو يكبح الهوى.

والواقع أن أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم لم يحتلوا فى الإيمان مكان القمة، ولم يغيروا التاريخ الإنسانى، ويقيموا حكما مكان حكم، وأخلاقًا مكان أخلاق، إلا لقربهم من حياة الرسول، واقتباسهم من سناه، وسريان الإخلاص من قلبه إلى قلوبهم، وحب اللّه من فؤاده إلى أفئدتهم..

هذه طباع الناس، ربما هاج أشواقهم الهامدة شوق حار على ما قيل:

وذو الشوق القديم وإن تسلى ... مشوق حين يلقى العاشقينا

وأرى أن الاستماع إلى النبى وهو يدعو، واستبطان عواطفه وهو يناجى يشعلان البصائر المنطفئة، ويدفعانها دفعًا إلى الإقبال على اللّه..!!

وليكن هـذا اللون مـن الأدعية نافلـة، فهناك قـدر مفروض من الاتصـال باللّـه يتصـ
بالمسجد، والصلوات المكتوبات على كل مسلم.

إنه خلال أربع وعشرين ساعة لابد من الوقوف بين يدى اللّه خمس مرات، وقد تفترض
الجماعـة أو تكون سنـة مؤكـدة، ومكـانة المسجـد فى المجتمـع الإسلامـى رفيعة، وسـوف
يستغرب الحديث عنها أناس أضاعوا الصلاة، واتبعوا الشهوات . .

مع التبـاس الخيط الأبيض والأسـود من الفجر يبدأ الخطـو إلى المسجد، وإغراء لـذلك
يقول الرسـول الكريم «بشر المشائين إلى المساجد فى ظلـم الليل بالنور التام يـوم القيامة»
﴿يوم ترى المؤمنين والمؤمنـات يسعى نورهـم بين أيـديهم وبأيمانهم﴾ (١) . . . ﴿يقولون ر
أتمم لنا نورنا واغفر لنا﴾ (٢) . .

وفى المشى إلى المساجد لحضور الجماعات، صح قول الرسول أنه: ما يرفع الإنسان قد
ويضع أخرى، إلا كتبت له حسنة، ومحيت عنه سيئة، ورفعت له درجة.

وروى ابن عباس أن النبى صلى اللّه عليه وسلـم خرج إلى الصلاة بعد سماع الأذان وه
يقول: «اللهم اجعـل فى قلبى نورًا، وفى لسانـى نورًا، واجعل فى سمعى نـورًا، واجعل
بصرى نورًا، واجعل من خلفى نورًا ومن أمامى نورًا، اللهم أعطنى نورًا».

وقد أعطاه الله مـا سأل، فكان: ﴿ داعيا إلى اللّه بـإذنه وسراجًا منيرًا﴾ وليت شعرى
تكون الإنسانية لو خلت من محمد؟ ومن سريرته النقية وبصيرته الوضاءة؟ ومن رسالته الـ
غسلت غسلا ما علق بعقيدة التوحيد من لوثات الأفاكين والمخرفين . .

لقد ارتبط بالمسجد، وجعل تعلق القلوب به أملا حلوًا، وأحيا بسيرته دعاء أبيه إبراهـ
لما قال: ﴿رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى ربنا وتقبل دعاء﴾ (٣).

لقـد تحولت الصـلاة فى سيرته مـن تكليف تصحبـه المعـاناة إلى سعـادة تستريح إليـ
النفس، وهو القائل: «وقرة عينى فى الصلاة».

وفى رواية كان إذا دخـل المسجد يقول: «أعوذ باللّـه العظيم وبوجهه الكريـم وسلط
القديـم من الشيطان الرجيـم» قال: فإذا قال- المسلـم- ذلك قال الشيطان: حفـظ مـ
سائر اليوم.

---

(١) سورة الحديد: ١٢.
(٢) سورة التحريم: ٨.
(٣) سورة إبراهيم: ٤٠.

وفى رواية . كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلـم إذا دخل المسجد حمد الله تعالى وقال : « اللهم اغفر لى وافتح لى أبواب رحمتك» . وإذا خرج قال مثل ذلك ، وقال : «اللهم افتح لى أبواب فضلك» .

ما كان أشد حبه للصلاة . كان إذا سمع المؤذن يقول : قد قامت الصلاة يقول : «أقامها اللّه وأدامها» .

ونحن مأمورون أن نردد كلمات الأذان ثم ندعو للرسول ، وهنا لطيفة يحسن إثباتها ، إننا نقول : اللهـم رب هذه الدعـوة التامة ، والصـلاة القائمـة آت محمدا الوسيلـة والفضيلة ، وابعثه مقامًا محمودًا الذى وعدته .

ربما تساءل سائل : لماذا لم تتجانس الكلمات فى التعريـف ، فيقال : ابعثه المقام المحمود الذى وعدته؟ والجواب أن النبى فـرح بالكلمة التى ذكرها القرآن الكريـم وهو يبشر العابد المتهجد بالجائزة التى تنتظره ﴿ومن الليل فتهجد بـه نافلة لك عسى أن يبعثك ربـك مقامًا محمودًا﴾[1] .

لقد تشبث بالكلمة المنبئة عن مكانته فى الآخرة ، وطلب من أمته أن تدعو الرحمن بسوق الجائزة وإنجاز الوعد ، ومكافأة قوام الليل الذى تـورمت قدماه من طول المناجاة والتلاوة ، والركوع والسجود .

إن لمحبة اللّه فى قلب هذا الإنسان المتبتل مكانة لا يزحمها شىء أبدا .

ولقد ربى - عن طريـق المحراب - الرجال الذين قادوا الإنسانية بعـده ثقافيا وسياسيا ، فما رأت الدنيا حضارة أشرف ولا أتقى مما صنع هؤلاء الربانيون من رجال محمد . .

رباهـم بوحى قريـب العهد بربه ، فـإذا الصحراء الغفل تتحول إلى معهـد يخرج أعرف الناس بالقيم والشرائع ، وأحق الناس بالإمامة والسياسة .

كانـت القلوب - وهـو يقرأ القرآن - تكـاد تطير من الروعـة والخشوع وكـان الأصحاب يرمقونه وهو يربيهم ، فما يملأ أحد عينه منه مهابة وإعزازا .

ولقد شعـر الرسـول الخاتم أنه أدى رسـالته عنـدما نظـر فى مرض الموت إلى المصلين فى المسجد ، فرآهـم مقبلين على اللّه ، خالصين للحق ، فاستنار وجهه كأنه صفحة مذهبة .

---

(١) سورة الإسراء : ٧٩ .

ذاك كل ما يريد ! ! ما يبغى إلا أن يلقى الله بهذا الثمر الحى لجهاده الدءوب .

ترى هل تعود المساجد يومًا مصانع للرجال كما كانت قديمًا؟ إن الأماكن متشابهة ، ولكن السكان . . غير ما نهوى . .

كأن مجنون ليلى كان يصف مشاعرنا عندما قال :

أما الخيام فإنها كخيامهم وأرى نساء الحى غير نسائها

أرق الدعوات بعد الطعام والشراب

والمرسلون بشر لابد لهم من تغذية رتيبة ، ودعك من تساؤل المشركين :

﴿ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق﴾؟ تساؤل غبى فالأكل لا يستغنى عنه جسد ، وإلا فكيف يحيا؟

المهم أن نعرف ماذا يأكل؟ وكيف؟

إن الذين يعيشون لغرض ضخم يطوون رغباتهم المادية طيّا فى سبيل ما يبتغون ، وتنشأ لديهم مآرب أخرى قد تذهلهم عن أشهى المتاع .

إننا فى عصر تظله حضارة مادية بادية اللهفة على اللذات العاجلة . وقد يقبل الشرفاء فيها أن يقوموا بتضحية ما لقاء أمر عظيم ، بيد أنهم لا يرون ذلك الغاية التى يسعون لها .

أما محمد والجيل الذى استمع إليه فنسق آخر من الفكر العالى .

واسمع إلى هذا الخبر: رأى النبى عمر بن الخطاب وعليه ثوب بدا وكأنه جميل ، فقال له : أجديد هذا أم غسيل؟ فقال : بل غسيل ، فقال له الرسول داعيًا : «البس جديدًا ، وعش حميدًا ، ومت شهيدًا» .

القتل فى سبيل الله إحدى شارات السعادة التى طلبت لعمر مع العيش الحميد ، والثوب الجديد . .

هكذا اختلطت لذات الدنيا والآخرة فى وعيهم وأملهم ، أفترى أولئك الرجال يعيشون لإقامة المآدب الدسمة؟

إننا لا نحقر طلب الطعام ، فتلك طبيعة البشر، كما بينا ، ومن حق الناس أن ينعموا بضرورات مكفولة ومرفهات كذلك لطيفة ، على أن ذلك لا يعنى الشره ، وإلف التنعم ، والجزع من تحمل متاعب الجهاد والحصار.

وقد كـان محمد صلى اللّـه عليه وسلـم ذا قدرة مستغـربة على العيـش الغليظ والمقـادير التافهـة من الأغـذية ، ولم يـؤثر عنـه اكتراث بأطـايب الطعـام وغاليـه ، ومع ذلـك فما أمر بشظف ، ولا حث على زهد ، ولا حرم حلالا . . !

وكان حفيا بنعمة اللّه يعظمها ويشكرها ويغـالى بها ، ويقول : «إذا أكل أحدكم فليذكر اسم الله تعـالى فى أوله ، فإذا نسى أن يذكر اسـم الله تعالى فى أوله فليقل : باسـم اللّه أوله وآخره» .

وكان إذا فـرغ من طعـامه قـال : «الحمد للّـه الذى أطعمنـا وسقانـا وجعلنا مسلمين» ويقول : «إن اللـه تعالى ليرضـى عن العبد يـأكل الأكلـة فيحمده عليهـا ، ويشرب الشربة فيحمده عليها» .

إن هناك أناسًا يملئون أجوافهم بالطعام والشراب ، ثم يمضون لشأنهم ما يدرون أن لله عليهم حقا ، إنهم كأية دابة دست فمها فى مزودها حتى شبعت . . وحسب . . ! !

هذا السلوك الحقير لا يليـق بمؤمن . وقد كـان إمام النبيين- كدأبه أبـدا- يفتن فى حمد اللّه بعـد الطعام- فمما روى عنـه قولـه : «اللهم أطعمـت وسقيت ، وأغنيـت ، وأقنيت ، وهديت ، وأحييت ، فلك الحمد على ما أعطيت» .

وقوله : «الحمد للّه الذى أطعمنى هذا ورزقنيه من غير حول منى ولا قوة» .

وفى روايـة كان رسـول اللّـه إذا أكل أو شرب قـال : «الحمد للّـه الـذى أطعم وسقـى ، وسوغه ، وجعل له مخرجًا» .

أو : «الحمد للّه الذى من علينا ، وهدانا ، والذى أشبعنا وأروانا ، وكل الإحسان آتانا» .

إن هذه البشـاشة فى استقبال النعمة ، وشكـر مسديها الأعلى ، لها دلالة يجب إبـرازها ، فقد كـان النبى الخاتـم إنسانًـا بعيدًا عن العلـل والآفات بـل كان جلـدًا يهزم المصارعين ، وفارس معارك يهرع للقاء المغيرين .

والبسطة فى الجسد حين تسد كل ثغرة ، وتلبى كل واجب تعد خيرًا عظيما .

وصاحب العافية يطـل على الدنيا من أرحب آفاقها ، ومن حقـه أن يتزود من الطعام بما يعين عليها . . ولم يحرم اللّه مأكـلا يمد الجسد بالطاقة أو يبنى مـا تهدم من الخلايا فى كدح الحياة الطويل .

ومن زعم غير ذلك فهو يفترى على دين اللّه ، إنما كره الإسلام السرف المتلف ، والتشبع المورث للبطنة . والبدانة ، وسائر الأمراض .

ولا يختلف الدين والطب فى هذه الأمور، وقد حسب النبى عليه الصلاة والسلام عدد المشركين فى بدر بين ألف وتسعمائة عندما علم أنهم يذبحون يومًا تسعًا ، ويومًا عشرًا من الإبل .

وعندما يطعم مائة من الرجال جملا فإن نصيب كل واحد من اللحم يكفيه ويغنيه .

على أن النبى صلى اللّه عليه وسلم فى أحيان كثيرة كان يكتفى بلقيمات وتمرات ، وعندما لم يكن فى البيت إلا الخل ، قال : «نعم الإدام الخل» وهذه هى الرجولة المرضية القوية لا تستذلها أزمة عارضة ، ولا تفقد تماسكها عندما تفقد بعض ما ألفت من زاد ، أو متاع .

والبشر أجمعون لابد لهم من نفض فضلاتهم بعيدًا عن العيون ، وقد شرع الإسلام تعاليم من الإنقاء والتطهر تليق بما ينبغى للبشر من وضاءة وجمال ومروءة .

وقد كان النبى إذا خرج من الخلاء يقول : «غفرانك . الحمد للّه الذى أذهب عنى الأذى ، وعافانى» .

ومن ألطف وأجمل ما روى عنه فى ذلك : «الحمد للّه الذى أذاقنى لذته وأبقى فى قوته ، وأذهب عنى أذاه» .

والضمير فى الجمل الثلاث يعود على الطعام .

لكأن هذه الكلمات وضعها نفر من علماء الطب والأخلاق والبلاغة . . فإنها ذكرت فضل اللّه فيما يسر من طعام شهى ، وفيما ادخره البدن من أسباب حياته ونمائه . . ثم فيما استبعده هذا البدن من نفايات تضر ولا تسر . .

أرأيت أجمل من هذا الحمد ، وأرق من هذا السرد؟ إن النبى الإنسان دائم الاستحضار لآلاء اللّه ، مسارع إلى شكرها ما استطاع .

* * *

مجالس النبوة

قد يحتاج المرء إلى العزلة كى يحتفظ بقلبه مشرقًا وفكرة ثاقبًا، وعلماء النفس يقولون : إن مستوى التفكير العالى يهبط عندما يخالط الإنسان الجموع .

وهذا صحيح بالنسبة إلى عظماء البشر العاديين ، أما رسل اللّه فإنهم يرتفعون بالجماهير، ولا تهبط بهم الجماهير.

وقد كان من الأصحاب من يشكو أن يقظته العقلية فى مجلس الرسول تخبو عندما يعود إلى بيته .

لقد كان محمد عليه الصلاة والسلام لفرط شهوده وقوة علاقته بربه يحول الأرض سماء ، والبشر ملائكة ، فأصحابه من حوله يذكرون اللّه ويوقرونه ، ويتواصون بعبادته ، وأداء حقوقه . . !!

وكان رسول اللّه يمقت مجالس الغافلين ، ويشمئز من كل تجمع خلا من ذكر اللّه ، وفى ذلك يقول : «ما من قوم يقومون من مجلس لا يذكرون اللّه تعالى فيه ، إلا قاموا عن مثل جيفة حمار. وكان لهم حسرة»!!

إن المجالس التى ينسى فيها اللّه ، وتنفض عن لغط طويل حول مطالب العيش ، وشهوات الخلق هى مجالس نتنة ، وماذا فيها يستحق الخلود؟ ما يستحق الخلود إلا ما اتصل بالباقى تبارك اسمه . . . !!

وإذا ضم الناس مجلس يخلط بين الدنيا والآخرة فينبغى أن يستبقى خيره فى مجلس ويستبعد شره بهذا الاستغفار. قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «من جلس فى مجلس فكثر فيه لغطه فقال قبل أن يقوم من مجلسه ذلك : سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك ، إلا كفَّر اللّه له ما كان فى مجلسه ذلك» .

وفى حديث آخـر «أنه إذا كان فى مجلس خير كان كـالطابع له، وإن كـان مجلس تخليط كان كفارة له».

إن الاختلاط بالناس ربما أثار التنافس على الدنيا، ربما أثار حب الظهور، والاستطالة، ربما شغل الأذهان بقضـايا تافهة، ربما قطع ما أمـر اللّه به أن يوصل، من أجـل ذلك كله جاء عن ابن عمر رضى اللّه عنهما قال: قلما كـان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلـم يقوم من مجلس حتى يدعو بهؤلاء الدعوات لأصحابه: «اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيـك، ومن طاعتك مـا تبلغنا به جنتـك ومن اليقين ما تهون به علينـا مصائب الدنيا».

«اللهم متعنا بأسماعنا وأبصـارنا وقوتنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منـا واجعل ثأرنا على من ظلمنـا، وانصرنا على مـن عادانا، ولا تجعـل مصيبتنا فى ديننـا، ولا تجعل الـدنيا أكبر همنا، ولا مبلغ علمنا، ولا نسلط علينا من لا يرحمنا».

كذلك كان النبى يختم مجالسه، فما ينفض الناس عنه قافلين إلى بيوتهم إلا وهم يخوضون فى الرحمة خوضًا.

* * *

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ليـــل أبيـــض

وينتهى سبـح النهار الطـويل، وتنقضـى الصلوات المكتـوبات، ويخلـص كل امـرئ بنفسه، قافلا إلى بيته ليستحـم ويستريح، فهل ذلك ما يستقبل به محمد الليـل الوافد؟ لو أن الفلاسفة الإلهيين يصنعون فى نهارهـم بعض ما يصنعه محمد فى ليله لكفـاهـم، ولحسب لهم كدحا حسنًا . .

إن النبى العابد يبدأ بالليل مرحلة جديـدة من مراحل الإقبال على اللّه! وما أكثر ما رواه المحدثـون عن أذكاره وأدعيتـه فعن حذيفـة وأبى ذر أن رسـول اللّه كان إذا أوى إلى فـراشه قال: «باسمك اللهم أحيا وأموت».

وعن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «إذا أوى أحدكم إلى فراشه فليقل: بـاسمك ربـى وضعت جنبى، وبـك أرفعه، إن أمسكـت نفسى فـارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين».

وهذا الحديث شرح للآيـة الكريمة: ﴿اللّـه يتوفى الأنفـس حين موتها والتـى لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى﴾[1].

والمؤمن فى تدبره لـلآية والحديث معًا يشعر أن روحه فى يد اللّه، وأنـه يستمد محياه لحظة بعد أخرى هبة من رب العالمين.

قد يضع جنبه فلا ينهض إلا يوم النشور، فإذا كان ذلك فهو يرجو الرحمة.

وإن قام ليبدأ نهارًا آخر فهو يرجو أن يحيا فى ضمان اللّه وحفظه.

أترى فى ذلك المنهج أثارة من اعتداد، وغرور؟؟

---

(١) سورة الزمر: ٤٢.

وعن البراء بن عازب قال : قال رسول اللّـه صلى اللّه عليه وسلم : «إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ثم اضطجع على شقـك الأيمن وقل : اللهم أسلمت نفسى إليك ، وفوضت أمرى إليـك ، وألجأت ظهرى إليك ، رغبة ورهبة إليك ، لا ملجـأ ولا منجى منك إلا إليـك ، آمنت بكتـابك الـذى أنـزلت ، ونبيـك الـذى أرسلت . . فـإن مت مـت على الفطرة» .

عندما يغمض المرء جفنه ويتهيأ للكرى يترك إرادته جانبًا لغيبوبة تطول أو تقصر.

كثيرون يستسلمـون للمجهول ، أمـا المؤمـن فيسلم نفسـه لربـه . . يفـوض إليه أمـره ، ويلجئ إليه ظهره . . !

إنه وحـده الحافظ ، مـن غيره يؤمـل؟ فى دفع ضر، أو جلـب خير. وقد يفكـر المرء وهو يستعد لمنامه فى مراجعـة ما أصابه طوال يومه من ربح أو خسارة ، ومـا عرض له من خطأ ، أو صواب . .

والواقع أن الدعوات التى علمنا إياها الرسـول الكريم تريح الأعصاب من هذا العناء ، وتصل بمشاعر الرغبة والرهبة إلى مستقرها فى جنب اللّه ، وتجعل المرء قبل هجوعه يؤكد أمرًا واحدًا يناجى به ربه «آمنت بكتابك الذى أنزلت ، ونبيك الذى أرسلت» ، تلك هى الفطرة التى يستريح المسلم فى مهادها الوثير.

وجـاء فى رواية أخـرى أن النبى عليـه الصلاة والسـلام كان يقـول إذا أوى إلى فراشـه : «اللهم رب السمـوات ورب الأرض ورب العرش العظيم ربنـا ورب كل شىء فـالق الحب والنوى ، منزل التوراة والإنجيل والقرآن . . أعوذ بك من شر . . أنت آخذ بناصيته .

أنت الأول فليس قبلـك شىء ، وأنت الآخر فليـس بعدك شىء ، وأنت الظـاهر فليس فوقك شىء ، وأنت الباطن فليس دونك شىء . . اقض عنا الدين ، وأغننا من الفقر» .

وفى رواية أخرى عـن على رضى اللّه عنه أن رسـول اللّه صلى اللّه عليه وسلـم كان يقول عند مضجعه : «اللهـم إنى أعوذ بوجهـك الكريم ، وكلماتك التـامة من شر ما أنـت آخذ بناصيته ، اللهم أنت تكشف المغرم والمأثم . . اللهـم لا يهزم جندك ، ولا يخلف وعدك ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد ، سبحانك اللهم وبحمدك» .

وفى رواية أخرى كان يقول : «باسم اللّـه وضعت جنبى ، اللهم اغفر لى ذنبى ، واخسئ شيطانى ، وفك رهانى ، واجعلنى فى الندى الأعلى» .

ونلحظ فى هذه الأدعية كلها أن النبى الإنسان لهج بتمجيد اللّه والتحدث عن عظمته

وقد قال- وهو يتأهب للنوم- كلامًا لا يستطيعه غيره مع حدة الانتباه وتألق الذهن، صور به الألوهية فى كمالها المطلق، وغناها الذى يرنو إليه سائر الخلق. .

وهو بعد هذا الثناء الحار يستجمع ذل العباد كلهم، فيطلب حصنا من الفقر، والدين، والإثم، ووساوس الشيطان. .

ويطلب المغفرة، والفكاك من كل قيد أرضى يشده إلى هذه الدنيا. . لأنه ينشد الانضمام إلى الندى الأعلى، إلى الرفيق الأعلى، إلى من فى السماء. . !!

إنه ما بقى فى الأرض، أى ما بقى بين الناس لا يريد أن تشينه آفات الحياة، لا يريد أن يسوءه أحد، ومن ثم فهو يكره الفاقة والرذيلة، ويود من الدنيا ما يرشحه لآخرة رفيعة القدر. .

ولا تحسبن أنه- عليه الصلاة والسلام- يأخذه النعاس العميق بعد هذه الضراعات التى ناجى بها ربه، لا. . ما هى إلا ساعة ثم يستيقظ ليلبى أمر اللّه باستئناف التسبيح والتحميد، فى جنح الليل كما كان يصنع آناء النهار.

ألم يقل اللّه له ﴿واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا * ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا﴾(١).

إن قيام الليل فرض عليه وحده. . لينم من ينام، أما هو فقد قيل له: ﴿قم الليل إلا قليلا * نصفه أو انقص منه قليلا * أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا﴾ (٢).

والمأثور من سيرته الشريفة أنه كان يقوم بالقرآن أوقاتًا متطاولة. .

وحدث وهو فى أخريات الحلقة السادسة من عمره أن قام يصلى- وكان فى البيت عبداللّه بن عباس وهو شاب فى أوائل الصبا- رأى أن يأتم بالرسول العابد. وشرع الرسول يقرأ ويقرأ والشاب القوى يكابد طول القيام، ويرقب انتهاء الصلاة. . لكن روح العابد المتبتل قهر الشيخوخة ومضى يختم سورة، ويبدأ أخرى. . قال ابن عباس: لقد هممت أن أتركه يصلى وحده، وأنصرف. .

لقد تورمت قدماه من طول الانتصاب الخاشع بين يدى رب العالمين لكن الفؤاد العامر

---

(١) سورة الإنسان: ٢٥، ٢٦.
(٢) سورة المزمل: ٢، ٣، ٤.

بـالحب أرهـق الجسد الـزاحـف إلى الستين فهـو لا يحس وخـز الألم قدر مـا يحس سعـادة الاستغراق، وحلاوة العبادة، وكما قيل:

وإذا كانت النفـوس كبـارا تعـبت فى مـرادها الأجسـام

وقد يستيقظ من الليـل ويرمى ببصره إلى الأفق، ويشعر بأن هذا السكـون السائد له ما بعده.

إن الناس سوف يصبحـون بين باك وضاحك، وحـى وهالك. ومهتد وضـال، وواجد وفاقد..!!

إن الأقدار تعد لهم مع الغد المنتظر أشياء كثيرة، ترى ما الموقف منها؟

إنه يقول: «سبحـان اللّه ماذا أنزل من الفتـن؟ وماذا فتح من الخزائن أيقظـوا صواحب الحجر- يعنى نساءه- يارب كاسية فى الدنيا عارية فى الآخرة».

إنه يستعد لليوم الجديد قبل أن يجىء بخيره وشره، يستعد له بعبادة يحشد لها أهل بيته، ينبغى أن يقمن الليل معه، وأن يتهيأن لليوم الآخر.

إنه يـوم يقلب الأوضاع المألـوفة فى عالمنا هـذا، رب كاسية فى الـدنيا عاريـة فى الآخرة، ورب صعلوك هنا يكون ملكًا هناك.

إن الآخرة هى دار الحق، ولها يجب الاستعداد.

وقد ينام بعـد ذلك ولكن القلب المفعم بـالتقوى يقظان، فإذا تقلب فى فـراشه، أو تهيأ لقيام ليله قال: «اللهـم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن، لك الحمد أنت قيوم السموات والأرض ومـن فيهن، ولك الحمد أنت رب السمـوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد، أنت الحق، ووعدك الحق، وقولـك الحق، ولقاؤك حق، والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق، ومحمد حق، والساعة حق، اللهم لك أسلمت وبك آمنت، وعليك توكلـت، وإليك أنبت، وبـك خاصمـت، وإليك حاكمـت، فاغفر لى مـا قدمـت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت أنت إلهى لا إله إلا أنت».

وكان الـرسول صلى اللّه عليـه وسلم يرغـب أمته فى استقبـال الليل بكيان نقـى نظيف فيقول: «طهروا هذه الأجساد طهركم اللّه تعالى فـإنه لا يبيت أحد طاهرا إلا بات فى شعاره ملك يقول: اللهم اغفر له فإنه بات طاهرًا..».

وطهارة البدن لا تغنى عن زكاة الروح، والمرء يعان على ليل طيب إذا دلف إلى فراشه، وقلبه مع ربه، وذكره على لسانه، عن على بن أبى طالب رضى اللّه عنه أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، قال له ولفاطمة رضى اللّه عنهما: «إذا أويتما إلى فراشكما، أو إذا أخذتما مضاجعكما فكبرا ثلاثًا وثلاثين، وسبحا ثلاثًا وثلاثين، واحمدا ثلاثًا وثلاثين». وفى رواية التسبيح: «أربعا وثلاثين» قال على فما تركته منذ سمعته من رسول اللّه قيل له: ولا ليلة صفين؟ قال: ولا ليلة صفين.

لقد بقى على هذا الأدب مع اللّه ورسوله نيفًا وثلاثين سنة حتى ليلة المعركة الرهيبة بينه وبين عدوه.

وكان على كثير الهموم، بعدت عنه الراحة فى هذه الدنيا، فلم يشعر بطعمها إلا يوم ذهب إلى ربه، وقد علقت عائشة على موته المؤلم بهذا البيت:

فألقت عصاها، واستقر بها النوى كما قر عينا بالإياب المسافر

لكن الهموم لم تذهله عن ذكر اللّه قبل كل منام، بل لعله كان يهزمها ويفل حدها بهذا الذكر الموصول..

وفى ترغيب الأمة كلها فى طهارة البدن والروح لاستقبال الليل جاء عن أبى أمامة رضى اللّه عنه سمعت النبى صلى اللّه عليه وسلم يقول: «من أوى إلى فراشه طاهرًا، وذكر اللّه عز وجل حتى يدركه النعاس، لم يتقلب ساعة من الليل يسأل اللّه عز وجل فيها خيرًا من خير الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه».

وعن عائشة قالت: كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إذا أوى إلى فراشه قال: «اللهم أمتعنى بسمعى وبصرى، واجعلهما الوارث منى، وانصرنى على عدوى، وأرنى منه ثأرى، اللهم إنى أعوذ بك من غلبة الدين، ومن الجوع فإنه بئس الضجيع».

فى هذا الحديث يرجو الرسول ربه أن يبقيه سليم الحواس طوال عمره، وأن يمتعه بسمعه وبصره إلى أن يموت، كما يدعوه النجاة من غلبة الديون وسطوة الجوع.

إن هذا النبى الإنسان ينشد الحياة القوية العزيزة البعيدة عن متاعب البأساء والضراء، وهذا حق كل إنسان صحيح الفطرة، ودعك من كذبة المتدينين الذين يرحبون بالآلام كأنها غاية تقصد لذاتها، أو كأن الدين حرب على السلامة والكرامة.

وفى هذه الكلمات دعوة نريد تفسيرها وتحديد معناها، ونسأل قبل ذلك: هل بين الرسول وبين أحد من الناس عداوة شخصية؟ كلا، فقد كان أسمح الناس بحقه الخاص، وما كان يهيجه إلا أن تستباح حقوق الله، فينتصب حينئذ للدفاع عنها كأنه أسد غضوب . . .

وهو عندما يسأل الله أن ينصره على عدوه فإنما يشرح بهذا السؤال قوله تعالى: ﴿ **واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين**﴾[1].

إن الكافرين يتركون فى أفئدة المؤمنين جراحًا دامية، خصوصًا المؤمنين الضعاف الذين اجتاحهم جبروت القوة فمزق شملهم، وأذل جانبهم، وضيق عليهم الدنيا الواسعة، فهى فى أعينهم كسم الخياط . . !!!

من حق هؤلاء المؤمنين المقهورين أن يروا ثأرهم من عدوهم، وأن يروا كبرياء الكفر ممرغة فى التراب . . !

وذاك سر الأمر بقتالهم إلى أن تذهب دولتهم: ﴿**قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين * ويذهب غيظ قلوبهم** ﴾[2].

إن للفطرة الإنسانية معالم ثابتة لا يسوغ محوها، ولا جهلها.

وهناك تدين مخبول، يؤخر العقل، ويجور على الطباع السليمة، ويتجاوز منطقها، وهذا التدين يرفضه الإسلام . .

ولعل من احترام الفطرة وتلبية أشواقها ما جاء عن عائشة رضى الله عنها قالت: « ما كان رسول الله ـ منذ صحبته حتى فارق الدنيا ـ ينام حتى يتعوذ من الجبن والكسل، والسآمة، والبخل، وسوء الكبر، وسوء المنظر فى الأهل والمال، وعذاب القبر، ومن الشيطان وشركه» .

وينام الرسول فى هذا الليل الحى بالطهر والذكر، وما هى إلا ساعة حتى يصحو لصلاة الفجر، ويستعد لاستقبال أربع وعشرين ساعة أخرى.

يستقبلها بهذا الدعاء: «أصبحنا وأصبح الملك لله، والحمد لله لا شريك له، لا إله إلا هو، وإليه النشور» . .

---

(١) سورة البقرة: ٢٨٦.

(٢) سورة التوبة: ١٤، ١٥.

فى خضم الحياة

محمد- عليه الصلاة والسلام- يعرف الله ويعرف الناس به ، يذكر اللّه ويشكره ، ويحدو قوافل الذاكرين والشاكرين ، فيلهب حماسهم إذا فتروا ، ويقيمهم على النهج إذا انحرفوا .

بل لقد أنشأهم إنشاء من جاهلية طامسة ، فعلموا من ربهم! وكيف يحيون له على ظهر الأرض وبما يعودون إليه يوم تفتح لهم أبواب السماء :

وليست العلاقة باللّه ساعة مناجاة فى الصباح أو المساء ينطلق المرء بعدها فى أرجاء الدنيا يفعل ما يريد . كلا ، هذا ، تدين مغشوش .

الدين الحق أن يراقب المرء ربه حيثما كان ، وأن يقيد مسالكه بأوامره ، ونواهيه ، وأن يشعر بضعفه البشرى ، فيستعين بربه فى كل ما يعتريه .

وقد كانت سيرة الرسول نسقًا واضحًا فى عمق الصلة باللّه وشمولها ، فما يمكن أن يغفل عن اللّه فى فعل أو ترك . .

ومن هنا وجدنا دعواته تتناول شئون الحياة المختلفة ، ولهجه بذكر اللّه يخالط كل ما يضع فيه يده .

كانت العاطفة المشبوبة تجعله يتعرض للمطر أول ما ينزل ، يقول : «هذا مطر حديث عهد بربه» .

وكان الناس إذا رأوا أول الثمر جاءوا به إليه ، فإذا أخذه الرسول قال : «اللهم بارك لنا فى ثمرنا ، وبارك لنا فى مدينتنا ، وبارك لنا فى صاعنا ، وبارك لنا فى مدنا» . ثم يعطيه أصغر الحاضرين من الولدان . .

وكان إذا عصفت الريح قال : «اللهم إنى أسألك خيرها ، وخير ما فيها ، وخير ما أرسلت به ، وأعوذ بك من شرها ، وشر ما فيها ، وشر ما أرسلت به» .

بهذا الشعور الغامر المستوعب يلقى كل شيء ، ويواجه بتعاليم السماء كما أنزلت إليه .

فلننظر فى جنبات المجتمع الإنسانى لنرى كيف يبنيه محمد باسم الله وعلى بركته .

بناء البيت المسلم

قد تكون الغـريزة الجنسية باب شر كبير عنـدما تستبد بها النزوات العـارضة والشهوات الثـائرة، وعنـدما تتعـدى حـدود اللّـه وحقوق النـاس، عنـدئذ تعـرض صاحبهـا للعـار والنار. . . !!

وكل الغرائز التـى لا تقفها حدود الشرع والأدب لابد منتهية بأصحـابها إلى بلاء غليظ، وقد قال شاعر عربى:

إذا أنت لم تتــرك طــعامًا تحبــه	ولا مجلســًا تدعى إلـيه الولائــد
تجلــلت عــارًا لا يــزال يــشبــه	سباب الرجـال نثرهـم والقصائــد

ولم يخلق اللـه الغرائز الجنسية للسطـو والختل، ولا خلقهـا ليتعبد بعض النـاس بقتلها والفراغ منهـا وقد جعل اللّه للغـريزة الجنسية متنفسًا سمحًـا هو الزواج، وأسال منهـا نبع الود، والرحمة الذى يلطف جو البيت.

وأهاب بالصالحين من عباده أن يقدروا هـذه السعادة، ويمرحوا فى بحبوبها، ولا يمدوا أعينهم إلى مـا وراءها، وأن يـوجهوا همهـم بعد الزواج إلى تـربية الأولاد وكفـالة حـاضرهم ومستقبلهم، وتكوين جيل صالـح مهذب منهم. قال تعالى: ﴿والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إمامًا﴾[1].

والمسلم الحق يهمه مسلك بنيه نحو ربهم وإخـوانهم، وليست وظيفته أن يزحم المجتمع بأولاد، حبلهم على غارِبهم.

وتدبر دعوة إبراهيم: ﴿رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى ربنا وتقبل دعاء﴾[2].

---

(١) سورة الفرقان. ٧٤.

(٢) سورة إبراهيم: ٤٠.

إن الظفر بأولاد يقومون بحقوق اللّه ربح عظيم ، ومن عظمة الإيمان فى قلب الخليل أن تكون أمنيته ذرية صالحة .

إن غيره يطلب لذريته الغنى أو الرياسة ، أو ما شاء من متاع الحياة الدنيا .

أما ما وراء ذلك فلا اكتراث به . . لكن أنبياء اللّه لهم شأن أعلى ، إنهم مهمومون بأمر العقيدة : **﴿أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهًا واحدًا ونحن له مسلمون﴾**[1] .

ويبدأ بناء البيت المسلم باختيار الزوجة الصالحة ، وليستعن باللّه فى ذلك .

وجاء أنه فى أول لقاء بينه وبين عروسه يستحب أن يسمى اللّه تعالى ويأخذ بناصيتها ويقول : بارك اللّه لكل واحد منا فى صاحبه ثم يدعو اللّه قائلا : «اللهم إنى أسألك خيرها وخير ما جبلتها عليه . وأعوذ بك من شرها وشر ما جبلتها عليه» .

وما منا أحد إلا وفى طباعه هنات تتطلب الستر والغفران .

ومن زعم أنه رزق الكمال فى شمائله جميعًا ، ومن زعمت أنها تمت فلا يعيبها ظاهر ولا باطن ، فكلاهما موغل فى الوهم .

ولو كان الزوجان صديقين فلابد لدوام الود من غض الطرف وسؤال اللّه الحفظ .

ومن ميزات الإسلام أنه يجعل المطالب الطبيعية للإنسان محفوفة بذكر اللّه ، فهو يطعم من جوع ، ويروى من عطش باسم اللّه .

وهو يمس امرأته كذلك قارنًا رغبته باسم ربه قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «لو أن أحدكم إذا أتى أهله قال : اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا ، فقضى بينهما ولد لم يضره شيطان أبدًا» .

والمرأة تتعرض بداهة للولادة ، وهكذا متع الدنيا يعقبها ما يشوبها . .

الأب يتعرض للكدح على أولاده ، والأم تتعرض لآلام الحمل والوضع والرضاع وكثيرًا ما تتعسر الولادة ، وتتحمل الأم عناء بالغًا .

ومن الخير التوجه إلى اللّه بما يرفع الكرب ، ويزيل الضر مثل : «اللهم رحمتك أرجو فلا تكلنى إلى نفسى طرفة عين ، وأصلح لى شأنى كله لا إله إلا أنت» .

---

(١) سورة البقرة : ١٣٣ .

ومثل : «يا حى يا قيوم برحمتك أستغيث» .

و «لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين» .

وكم لرسول اللّه من دعوات حافلة بحب اللّه ، وانتظار فرجه . . . !!!

والعلاقة بين الذكورة والأنوثة تحتاج إلى فضل بيان ، فإن النصرانية ترى من حقيقة التقوى حسم هذه العلاقة وتطلب من الصالحين والصالحات أن يصموا آذانهم عن نداء الغريزة المكظومة .

وقد قام نظام الرهبانية على هذا الأساس ، ولا يزال . .

وعندما نتأمل فى هذه القضية نرى أن البعض ضعيف الغريزة فلا يبالى بالحرمان وأن البعض الآخر شديد النزوع ، فهو إما يتخذ وسائل خفية لإشباع نهمته ، أو يشتبك فى حرب قاسية مع نفسه لا يخرج منها سليم الأعصاب رضى الحكم على الأمور . .

والحكم بأن المرء بلغ حقيقة التقوى فى هذه الحالات كلها مرفوض . .

أما الإسلام فقد أباح الزواج ، ويسره ، وجعله من القربات إلى اللّه .

وعندما يطمئن إلى الضمانات الخلقية عند الرجل يبيح له التعدد . . وإلا منعه .

والغريب أن العالم الغربى - متأثرًا بالنصرانية - أثار دخانًا كثيفًا حول تعاليم الإسلام ، وأطلق عليها ألسنة الشغب من كل ناحية .

والأغرب أن هذا العالم الغربى بنى علاقاته الجنسية على فوضى رهيبة ، فالأولاد الذين يولدون على فراش المعصية تتفاحش نسبتهم حتى كادوا فى بعض الأقطار يقاربون نسبة الأولاد العاديين .

وبالنسبة إلى التعدد ، فإن تنقل الرجل بين لفيف من النساء أمر مفهوم ، وقد ذكرت امرأة كنيدى - رئيس أمريكا الأسبق - أنه كان لزوجها بين ٢٠٠ و٣٠٠ صديقة .

والصعاليك فى العالم الغربى لا الملوك يستطيعون السطو على مئات الأعراض .

والذى يستحق الدهشة أن يدور الرجل بين جيش من العشيقات دون حرج ، فإذا دار بين بضع زوجات داخل سياج من الأخلاق المحكمة وضع فى قفص الاتهام . . من زعماء الغرب الكبار وساسته المشهورين رجل له فى ميدان الفاحشة قدم راسخة !! ومع استفاضة خبثه ونسبة الخنا إليه فإن هذا لم يخدش شيئا من عظمته . . . !

كتب الأستاذ أنيس منصور يقول[1]: لم يكن غريبًا أن يصدر فى فرنسا كتاب عن نمر السياسة الفرنسية «جورج كلمنصو» (١٨٤١-١٩٢٩). فهذا الرجل خاض معارك سياسية مخيفة، واستطاع أن يتغلب على الجميع، وكان قادرًا على أن يتحدث إلى عشرين شخصًا فى عشرين موضوعًا فى وقت واحد . .

ولم يكن أحد يتصور أن هذا الرجل كانت له ثمانمائة عشيقة، وكان له أربعون ابنًا غير شرعيين ! !

ترى كم الشرعيون الذين نسلهم هذا الذئب؟

يقول أنيس منصور: لكنه عندما علم أن زوجته الأمريكية خانته نهض عند منتصف الليل وفتح لها الباب لتهبط إلى الشارع بقميص النوم!

ونعجب نحن لماذا حرم الرجل على غيره ما استباحه لنفسه . .

يقول الصحافى المعلق: كلمنصو- مثل كل الذئاب البشرية- من أكثر الناس احتقارًا للمرأة، ولم يقل أحد فى المرأة أسوأ ولا أبشع مما قاله هو، سواء على فراش اللهو، أو على فراش المرض . . !!.

ومع ذلك فإن مساعد وزير الدفاع الفرنسى أصدر كتابًا عنه، وقادة العالم الغربى يعدونه من قممهم الرفيعة . ! لماذا؟ لأنه زنى ولم يتزوج . . . ! !

إن الزنى شيء يسير، أما التعدد فمنقصة تهوى بصاحبها ولو كان من العباقرة! هذا هو التقليد الذى أرسته الصليبية، وباركته، وتريد إشاعته بيننا ! !

لقد ارتفع نبى الإسلام بمعنى الزواج ارتفاعًا يستحق التنويه، فهو ليس سطوة رجل قوى على أنثى ضعيفة . . إنه عقد حر، بدأ وتم بإذن اللّه وفى ضمانه، وعندما خطب رسول اللّه الناس فى حجة الوداع قال: «اتقوا اللّه فى النساء فإنكم أخذتموهن بأمانات اللّه، واستحللتم فروجهن بكلمة اللّه».

ولهذا العقد طبيعة مادية وروحية، أرضية وسماوية، والبيت القائم عليه عامر بالسكينة والمودة والتراحم . .

ولهذا العقد كذلك طبيعة اجتماعية تتيح للنماء البشرى أن يمتد فيه زاكيًا مهديًا . .

---

(١) الأهرام ١٣/٩/١٩٧٩.

وقد سمى القرآن هذه الطبائع العتيدة : «حدود اللّـه» لأن اللّه يريد من أركان البيت أن تكون أركانًا للبر والتقوى، والتعاون المشترك على أعباء الحياة كلها.

ونحن نثبت خطبة يبدأ بها الزواج، ثم نعقب بذكـر دعاء يلازمه عند بدو آثاره، واطراد سيره مع الزمن، ليعلم الناس أن الزواج فى دين اللّه ليس تلاقيًا حيوانيا، ولا يفهمه كذلك إلا قطعان الرعاع . .

قال العلماء: يستحب أن يخطب بين عقد الزواج خطبة رقيقـة مناسبة، وأفضل ذلك ما رواه عبد اللّـه بن مسعـود قال: علمنـا رسول اللّـه خطبة الحاجـة: «الحمد للّـه، نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بـه من شرور أنفسنا، من يهد اللّه فلا مضـل له، ومن يضلل فـلا هادى لـه، وأشهـد أن لا إله إلا اللّـه وحـده لا شريك لـه، وأشهـد أن محمدًا عبـده ورسوله، أرسله بالحق بشيرًا ونذيرًا بين يدى الساعة، من يطع اللّه ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فإنه لا يضر إلا نفسه ولا يضر اللّه شيئًا».

﴿يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم مـن نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرًا ونساء واتقوا اللّه الذى تساءلون به والأرحامَ إن اللّه كان عليكم رقيبًا﴾[1].

﴿يأيها الذين آمنوا اتقوا اللّه حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾[2].

﴿يأيها الـذين آمنوا اتقـوا اللّه وقـولوا قولا سـديدًا * يصلح لكـم أعمالكم ويغفـر لكم ذنوبكم ومن يطع اللّه ورسوله فقد فاز فوزًا عظيما﴾[3].

ثم- بعـد هذا الخطـاب- يعقد الـزواج مذكـرًا الزوج بتقـوى اللّه، وإحسـان العشرة، وإقامة حدود اللّه.

والمتـدبر فى الآيـات المختـارة يرى أنها تمهـد لـذلـك، وتوجـه لتـأسيس أسرة يقـوى بها الإسلام، وتدعم بها الأمة، فالزواج عقد خطير الآثار.

وتمضى السنون، ويتحول الزوجان إلى والدين، ويضحى كل منهما معلق القلب بنشء وافد يعده امتداد حياته، وتنمو الأسرة فتصير أربعا وثمانيا، وعشرا.

وحين يمتد الـزمن بالأبـوين يكبر الصغار ويسيرون فى ذات الطـريق الذى سلكـه من قبلهم، ترى ما مسلك هذه الأجيال الجديدة بالنسبة إلى من مضى؟

(١) سورة النساء: ١ .
(٢) سورة آل عمران: ١٠٢ .
(٣) سورة الأحزاب: ٧٠ ، ٧١

يقول عز وجل : ﴿ووصينا الإنسان بوالـديه إحسانًا حملته أمه كُرهًا ووضعتـه كُرهًا وحمله وفصاله ثلاثون شهرًا حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال ربِّ أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىَّ وعلى والدى وأن أعمـل صالحًا ترضاه وأصلح لى فى ذريتى إنـى تبت إليك وإنى من المسلمين﴾[1].

إن الجيل الحاضر يحيى الخالـق الأعلى، ويذكر آلاءه على الجيل الماضـى ويستنزل فضله على الجيل اللاحـق، تلك هى وظيفة البيت المؤمـن، وربط الناس بربهم، وحراسـة تقاليد العبادة، والشرف التى وضعها لهم .

فلا عجب إذا كانت حملة العرش تدعو لأهل هذه البيوت المحافظة : ﴿ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلمًا فاغفـر للذين تابوا واتبعـوا سبيلك وقهم عذاب الجحيـم * ربنا وأدخلهم جنات عـدن التى وعـدتهم ومن صلح مـن آبائهـم وأزواجهم وذرياتهم إنـك أنت العـزيز الحكيم﴾[2].

وسنرى أن البيت الأول فى الجماعـة الإسلامية، أعنى بيت النبى صلى اللّـه عليه وسلم، ومن فيه من أمهات المؤمنين كان الأسوة الحسنة فى طلب الآخرة وصدق الإقبال على اللّه .

كان البيت النبوى بيت ترفع على الرفـاهة والترف، وإدمان للذكر والتلاوة، وقيام الليل يملأ آناءه بالتجهد، والثناء على اللّه .

والحق أن الأسرة الإسـلاميـة أعلى عنـاصر التربيـة والتـوجيـه، والحفـاظ عليهـا ضمان للاستقامة، وسناء الخلق، وسلامة الوجهة . .

وسنرى بعد قليل كيف كان البيت النبـوى منارة اليقين والتقوى فى حياة الأمة الإسلامية كلها . . !!

---

(١) سورة الأحقاق : ١٥.
(٢) سورة غافر: ٧، ٨.

معركـــة الخبـــز

يخرج المسلم من بيته ليبـاشر العمل الذى يؤديه ، إن كان موظفًـا فإلى مكتبه ، وإن كان عاملا فإلى مصنعه ، وإن كان تاجرًا فإلى دكانه ، وإن كان فلاحًا فإلى حقله .

والنـاس يغدون إلى أعمالهم ، وشئـون الـرزق مستـولية على أعصـابهم ، مستحـوذة على أفكارهم ، إنهم يريدون الكثير لأنفسهم وأهليهم ، المقل يـريد سعة ، والموسع يريد مزيدًا ، ومآرب الحياة لا تقف عند حد ، والقوى المبذولة وراءها تستنفد الطاقة .

ترى كـم تستهلك هـذه الساحة مـن جهود البشر؟ كـأن صاحب الـرسالـة الخاتمة كان يستحضر هذه المشاعر، وهو ينـاجى ربه عندما يخرج من بيته يقول : «بـاسم اللّه ، توكلت على اللّه ، اللهم إنى أعوذ بك من أن أزل أو أزل ، أو أضل أو أضل ، أو أظلم أو أظلم ، أو أجهل أو يجهل على . . . » .

إنه لا يـريد غلبًا على أحد ، إنـه يريد النجاة مـن الزلل يقع فيـه أو يوقع أحدًا فيـه ، إنه يبغى الهدى لنفسه ولغيره ، إنه يستعيذ باللّه أن يجهـل على أحد أو يجهل عليه طاغ مفتون ، إنه يكره الظلم فى صوره كلها . . ! !

بذلك يدعو ربـه ، ويستمد منه العون ، وقد طلب الرسول من كـل مسلم عندما يغدو من بيته لما يهمه مـن شأنه أن يوثق رباطه بـربه ، فعن أنس بن مالك قـال قال : رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «مـن قال- يعنى إذا خرج من بيته- باسم اللّـه ، توكلت على اللّه ، ولا حول ولا قوة إلا باللّه ، يقال له : هديت ، وكفيت ، ووقيت . . . » .

إن مخالطة الناس تعرض المرء لمشكلات جمة ، وقد يتولد من الاحتكاك شر حارق .

واليقظة العقلية مهما كانت حادة لا تغنى عن حمايـة اللّه ، وهو سبحانه يقى من اعتمد عليه ، ولاذ به .

بل ينبغى للمسلم أن يتهم قواه الذاتية ، وأن يرمق باستعطاف العون الأعلى ، قائلا . . كما علمه نبيه : «اللهم لا سهل إلا ما جعلته سهلا ، وأنت إذا شئت تجعل الحزن- الصعب- سهلا» .

وعندما تضطرب أحوال العيش ، وتبرز صعوبات مقلقة ، يزداد تشبثه بربه ، فعن ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم : «ما يمنع أحدكم ، إذ عسر عليه أمر معيشته ، أن يقول إذا خرج من بيته :

باسم اللّه على نفسى ومالى ودينى ، اللهم أرضنى بقضائك ، وبارك فيما قدر لى ، حتى لا أحب تعجيل ما أخرت ، ولا تأخير ما عجلت» . .

سبحان اللّه ، أى علم بالنفس البشرية ومتاعبها كان عند هذا الرسول؟ وأى خزائن ملأى باليقين كان يمنح منها هذا وذاك ليستبقى العلاقة باللّه ثابتة هادئة .

عن البراء بن عازب قال : أتى رسول اللّه رجل يشكو إليه الوحشة . . فقال له رسول اللّه صلى الله عليه وسلم : أكثر من أن تقول : «سبحان الملك القدوس ، رب الملائكة والروح ، جللت السموات والأرض بالعزة والجبروت» . فقالها الرجل ، فذهبت عنه الوحشة .

هذا رجل من أولى الحساسية الذين يجنحون إلى العزلة ، ويتطيرون من الخلائق ، لعله من النوع الذى يقول :

وإن امرأ يمسى ويصبح سالمًا من الناس- إلا ما جنى- لسعيد

لكن الحياة لا تتطامن لهؤلاء وترضيهم ، فهم منها على وجل ، وما تنقضى حاجتهم إليها ، وقد ذهب يشكو إلى الرسول هذا الاستيحاش المعنت ، فنصحه بذلك الدعاء ، الذى يدفعه دفعًا إلى الأنس باللّه .

على أن النبى عليه الصلاة والسلام يكره تحول الوحشة إلى عجز ، أو أن يكون ذكر اللّه ستارًا لهزيمة نفسية لا تليق ، عن عوف بن مالك ، قضى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بين رجلين ، فقال المقضى عليه لما أدبر : حسبى اللّه ونعم الوكيل . . فقال رسول اللّه : «إن اللّه تعالى يلوم على العجز ، ولكن عليك بالكيس- بالعقل والعزم والمثابرة- فإذا غلبك أمر فقل : حسبى اللّه ونعم الوكيل» .

إن البصر الثاقب لم تفته حالة الرجل المحكوم عليه ، لقد ملكه الفشل فولّى يستر ضعفه واستسلامه بهذه الكلمة : حسبى اللّه ونعم الوكيل ، إنها هنا كلمة حق أريد بها باطل .

عندمـا قال هـذه الكلمة الـذين هزمـوا بالأمـس فى أحد، ثـم أصبحوا يتحـاملون على جراحهـم، ويحشدون آخر ما لـديهم من وسع ليثـأروا من مشركى مكة لم يضعفـوا، نعم لما قيـل لهم: ﴿**إن الناس قـد جمعوا لكـم فاخشـوهم فـزادهم إيمانًـا وقالـوا حسبنا اللّـه ونعم الوكيل**﴾[1]. . قالوا ليبارك اللّه فى عزمهم وبذلهم واستئنافهم لجهاد المبطلين. .

للكلمة هنا معناها المحبوب المقبول. .

وما يجوز أن تقال الكلمة تسليمًا بالأمر الواقـع، وتقاعسًا عن تغيره، وانتظارًا من السماء أن تدافع عمن لا يدافع عن نفسه.

لابد لضمان السماء مـن سعى، لابد لـلأمل من عمل. . مـن أجل ذلك قـال عمر: لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ثم يقـول: اللهم ارزقنى، وقد علم أن السماء لا تمطر ذهبًا، ولا فضة. .

على أن الحياة المعـاصرة لا تشكو مـن متوكلين لا يعملـون، وإنما تشكو مـن عاملين لا يتوكلون، فإن الصبغة المادية سادت القارات المعمورة.

والناس يغدون من بيوتهم وهم يتلهفـون على صيد ثمين ينقضون عليه. . وإذا أمكنتهم الفـرص من مـآرب سـال لعابهم لآخـره. . إنهم يـأكلـون، ولا يشبعون، ويشربـون، ولا يرتوون. .

وفى هذه الحمى لا تعلق للقلب إلا بالمزيد من الحطام. .

فإذا حدث أن استعصى رجل على هذا المنحدر، وتراجعت إلى فؤاده خصائصه العليا، واستبان وجـه ربه وسط ركـام من ضباب الأهواء، فـذكر اسمه، ووحيـه، وتشبث بآيـاته وتوجيهاته، فأى ثواب يكون له؟

قال رسول اللّه صلى اللّـه عليه وسلم: «من دخل السوق فقـال: لا إله إلا اللّه، وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، يحيى ويميت، وهو حى لا يموت، بيده الخير، وهو على كل شىء قدير، كتب اللّه له ألف ألف حسنة، ومحا عنه ألف ألف سيئة ورفع له ألف ألف درجة». .

إن هـذا الأجر الجزل ليـس لألفـاظ تمرق من الشفـاه، إنها لحال مـن الثقـة فى الوجـود الأعلى، والفضل الأعلى، تجعل الرجل يركن إلى من بيده الخير، فلا يحتال، ولا يغتال. .

---

(١) سورة آل عمران: ١٧٣.

وقد أكد الأئمة أن هذه الأجور الكبيرة لا توضع بإزاء الأعمال الصغيرة، ولا الهمم الصغيرة. . !!

وفى ميدان الارتزاق والكدح للنفس والولدان، قد يختلط الطيب والخبيث والنقى والمغشوش، والمسلم يعلم أنه لا يدخل الجنة لحم نبت على سحت، وأن اللّه طيب لا يقبل إلا طيبًا، ومن ثم وجب على المؤمن أن يتحرى، وقد علمنا الرسول صلى اللّه عليه وسلم هذا الدعاء: «اللهم اكفنى بحلالك عن حرامك، وأغننى بفضلك عمن سواك».

«اللهم إنى أسألك علمًا نافعًا، ورزقًا طيبًا، وعملا متقبلا».

وفى زحام الدنيا ربما تعرض المرء لما يسوءه، وربما استفزه السفهاء ليجهل عليهم، أو ليثأر لنفسه منهم، وخير له إذا خرج من بيته أن يضمر التجاوز والسماحة. روى أنس بن مالك أن رسول اللّه قال: «أيعجز أحدكم أن يكون كأبى ضمضم»؟ قالوا: ومن أبو ضمضم يا رسول اللّه؟ قال: «كان إذا أصبح قال: اللهم إنى قد وهبت نفسى وعرضى لك، فلا يشتم من شتمه، ولا يظلم من ظلمه، ولا يضرب من ضربه»!!

وزحام الدنيا غاص بالمثيرات النفسية والاجتماعية، والإقبال عليها ناشب بأعماق النفس، والأمر يحتاج إلى أن نشرح موقف الأنبياء منها، تمهيدًا لإيضاح موقف النبى الخاتم عليه الصلاة والسلام.

الأنبياء بشر أمثالنا، ومناصبهم العالية لا تسقط عنهم مشاق التكاليف ولا تريحهم من أعباء الواجبات المفروضة، بل الصحيح أنهم أشد بلاء، وأكثر عناء، وذاك معنى قول العلماء: العصمة لا تمنع المحنة، أى لا تمنع الاختبار، وضروب التمحيص.

كان يوسف بشرًا يضيق بالسجن ويتشوق للحرية، يوم قال للسجين الذى يتوقع الإفراج عنه: اذكرنى عند ربك. . ولم لا يذكره، وهو برىء مظلوم؟ وهذا السجين الخارج يعرف عن يوسف أنه من الصالحين المحسنين. . فليحدث عنه الملك الذى سيعمل معه. .

وشاء اللّه أن ينسى السجين الخارج، وأن يبقى يوسف بضع سنين. . حتى جاء اليوم المقدور، وأرسل الملك إلى يوسف يستقدمه، ولكن يوسف كان قد بلغ حدًا من الاكتمال والتأبى جعله يتريث فى الاستجابة ويقول: أولا اعرفوا موقفى من القضية التى اتهمت فيها. . !!

ثم خرج يوسف ليتولى شئون مصر. .

وكان موسى بشرًا يحس لذع الغربة فى أرض مدين . . . فلما سقى للفتاتين أوى إلى الظل وناجى ربه : ﴿رب إنى لما أنزلت إلىَّ من خير فقير﴾[1] . .

وجاءه الغوث إذ وجد المأمن المنشود ، عند سيد مدين الذى قال له : ﴿**نجوت من القوم الظالمين**﴾[2] . ثم تزوج ابنته ، وعاش فى صحبته ، وتهيأ للرسالة الضخمة .

وكان لوط بشرًا عندما داخله الحرج الشديد ، لما رأى المجرمين من قومه ينظرون بخسة ، وشره إلى وفد الملائكة عنده .

لقد تمنى لو كان ذا عصبية يؤدب بها السفلة ، حتى طمأنته الملائكة أن مصير القوم يقترب .

﴿ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر * فذوقوا عذابى ونذر﴾[3] .

إن تعليق النبى الخاتم على بعض ما سقنا من قصص ينبئ عن جانب أخلاقه .

يقول عن لوط : «رحم اللّه لوطًا ، كان يأوى إلى ركن شديد» . . يعنى أن اللّه ما كان ليتركه ، وما كان له أن يأسى على عصبية مفقودة . .

والواقع أن إحساس محمد باللّه وتأييده ، لا نظير له ، ولقد سمى «المتوكل» لهذه الخلة البارزة .

إن هذا الاعتماد الفذ على اللّه هو الذى أمده بالقوة على نشر عقيدته ، وتبليغ رسالته فى عالم كل شبر منه يتنكر له ، وأول من صرخ فى وجهه يتهدده عمه أبو لهب . . ما كانت توجد ذرة من أمل فى نجاح هذه الدعوة لولا أن صاحبها استند إلى اللّه ، ومضى إلى غايته ، لا يثنيه شىء . .

وتعليقه على كلمة لوط الذى يوحى بالقوة والثقة غير تعليقه على كلمة يوسف الذى يوحى بالتواضع وهضم النفس إنه يقول : « لو لبثت فى السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعى» . .

أى لاستعجلت الفرج ، وتركت السجن ، غير منتظر سؤال النسوة وجوابهن المعروف .

إنه هنا- مع تواضعه البادى- يقرر الطبيعةالإنسانية فى التلهف على الحرية ، وكره عالم السدود ، والقيود . .

---

(١) سورة القصص : ٢٤ .
(٢) سورة القصص : ٢٥ .
(٣) سورة القمر ٣٨ ، ٣٩.

والذى نخلص منه بعد هذا التقديم أن الأنبياء تهزهم المشاعر الفطرية التى تهز جمهرة البشر، وأنهم عندما يقدمون فى مواطن الوغى لا يأخذون أمانًا من الموت، وعندما يبذلون المال لا يأخذون ضمانًا من الفقر.

إن أخلاقهم العلا تكلفهم كل مغارم العظمة التى يدفعها الآخرون. ويبقى بعد ذلك تفرد المرسلين بأن أوجههم الذى يعيشون فيه لا يسمح لهم أبدًا بالتدلى، فهم أزكى مكانًا، وأسنى منالا.

ونتساءل بعدئذ عن علاقة محمد صلى اللّه عليه وسلم بالدنيا؟ أكان يحبها أم كان يعافها؟

ونجيب: أنه كان يعرف الدنيا معرفة الخبير، ويتذوقها تذوق المعافى السليم، بيد أنه كان مشغولا عنها بما هو أعظم، وأشرف.

إن المجد الإلهى استغرقه، فجعل فى الصلاة قرة عينه، وفى الصيام مسرح روحه، وفيما عند اللّه شغلا عن كل جاه يسعى إليه طلاب الجاه..

وقد فرض هذا النمط من الحياة على زوجاته، وأفهمهن أن طالبات الدنيا لا مكان لهن عنده: ﴿إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحًا جميلا﴾[1].

ولكنهن شغلن بما عناه، واجتهدن أن يرتفعن إلى مستواه، من الذكر والعبادة وطول الإقبال على اللّه. عن جويرية أم المؤمنين رضى اللّه عنها أن النبى خرج من عندها بكرة، حين صلى الصبح، وهى فى مسجدها، ثم رجع بعد أن أضحى، وهى جالسة فيه. فقال: «مازلت اليوم على الحالة التى فارقتك عليها»؟- من اعتكاف وتعبد- قالت: نعم..

فقال النبى صلى اللّه عليه وسلم: «لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن: سبحان اللّه وبحمده، عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته».

وعن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «لأن أقول: سبحان اللّه، والحمد للّه، ولا إله إلا اللّه، واللّه أكبر، أحب إلى مما طلعت عليه الشمس».

---

(١) سورة الأحزاب: ٢٨.

إن سعادته، وهو يردد هذه الكلمات، ويستحلى معانيها، أشهى لديه من امتلاك كل ما أضاءه النهار فى دنيا الناس . .

وهب أنه ملك القناطير المقنطرة من الذهب والفضة، ما عساه يفعل بها؟ لقد قال: إنه لو كان لديه مثل جبل أحد ذهبا ما مرت عليه ثلاث ليال، وعنده شيء منه . . كان سيفرقه فى حاجات الفقراء، ولو بقى شيء لرصده لعوارض المسغبة، والبأساء التى تطرأ على الناس .

ولقد كان يملك الوادى من الشاء والنعم فلا تغيب الشمس إلا وهو فى أيدى العفاة . .

إن حبه كان لشيء آخر، للّه، لكتابه، لمناجاته، لمرضاته . .

واسمع إليه يشرح مشاعره نحو القرآن العظيم: «اللهم أنا عبدك، وابن عبدك، وابن أمتك، وفى قبضتك، ناصيتى بيدك، ماض فى حكمك، عدل فى قضاؤك أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته فى كتابك، أو علمته أحدًا من خلقك، أو استأثرت به فى مكنون الغيب عندك، أن تجعل القرآن الكريم ربيع قلبى، وضياء بصرى، وذهاب حزنى، وجلاء همى وغمى» . .

إن الوحى أساسه فكيف لا يكون أنيسه الدائم؟ كان فى سفره يقطع المفاوز، وهو به يصلى، وفى إقامته كان وعيه نسيجًا من معانيه .

وجاء أنه طلب من الصحابى الكبير عبداللّه بن مسعود أن يقرأ عليه القرآن . . !! فقال ابن مسعود: أقرأ عليك وعليك أنزل؟ فقال صلى اللّه عليه وسلم: «إنى أحب أن أسمعه من غيرى» . . ويقرأ عبداللّه من أول سورة النساء حتى يصل إلى قوله سبحانه: **﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدًا﴾**؟ والتفت إلى الرسول صلى اللّه عليه وسلم، فإذا عيناه تذرفان . . قال له: «حسبك . .» .

ويواصل الصيام، فلا يفطر مع الغروب، ويحاول بعض صحبه أن يقلده فيقول لهم الرسول مانعًا: «إنكم لستم كهيئتى، إنى أبيت عند ربى يطعمنى ويسقين» .

إن تبتله إلى اللّه أحدث تغييرًا فى كيانه البشرى، وجعله يتقلل تقللا خطيرًا من الطعام والشراب، لأنه يحيا فى ملكوت آخر . .

ومع هذا البعد الروحانى الساحق فقد كان يعيش بين الناس خبيرًا بطباعهم، شاعرًا بقضاياهم، يبت فيها باسم اللّه، فما ينحرف قيد أنملة عن الصراط المستقيم . .

هل يمكننا أن يكون موقفنا نحن من الدنيا على هذا الغرار؟ لا، ما نستطيع ولا كلفنا . .

إن بعض الفقراء والزهاد والمتصوفة حاول أن يخاصم الدنيا، ويعيش على هامشها، وأن يتشبه برسل اللّه فى سيرتهم المترفعة، وهيهات . .

إن حمرة الخجل لا تصنعها بعض المساحيق المجلوبة، والأزهار الصناعية قد يكون بها شبه من الأزهار الطبيعية، بل لعلها أبقى على الأيام . . لكن أين عصارة الحياة، ونعومة الملمس، ونفح الرائحة الذاتية؟

ربما نام ناس على الحصير فانطبعت عيدانه فى جلودهم . . هل يمنحهم ذلك شبهًا بالرسول الذى رمق الدنيا بنظرة غائبة لأن فؤاده حاضر مع ربه، يقظان فى حضرته، مستغرق فى شهوده؟ إن الرجل لا يكون قائدًا لأنه عثر على بدلة قائد فلبسها . .

إن لجمهور الناس موقفًا من الدنيا شرحه الرسول لهم، نحب أن يعرفوه، وحسبهم شرفًا أن يلتزموه . .

كان لقارون دنيا عريضة وثراء يشد إليه العيون، وكان عشاق الحياة ينظرون إليه ويقولون: يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون . .

ولم يطلب اللّه من قارون تطليق هذه الدنيا، لقد طلب إليه أمورًا تعد على الأصابع . .

من مولك وكان يمكن أن تحيا صعلوكًا؟

إنه اللّه . . إذن انظر إلى مالك وقل: ما شاء اللّه، لا قوة إلا باللّه . . بيد أن المغرور قال: عبقريتى هى سر غناى . . ولو فرضنا جدلا أن هذا القول صحيح فمن الذى منحك الذكاء، والمضاء؟

إنه اللّه، ولكن الغافل لا يحس . .

إن اللّه عندما يعطى يطلب الاعتراف بعطائه فهل هذا تكليف صعب؟

وهو يطلب من آخذ فضله أن يرحم ولا يقسو، وأن يعتدل ولا يطغى، وأن يصلح ولا يفسد، وقد قال لقارون: ﴿وابتغ فيما آتاك اللّه الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن اللّه إليك ولا تبغ الفساد فى الأرض﴾[1].

---

(1) سورة القصص: ٧٧.

ولكن المؤسف أن ناسًا كثيرين يمنحهم اللّه الدنيا فيذكرون أنفسهم ولا يكترثون بغيرهم، ويضاعفون متعهم على حساب الجياع، ويعصف بأحلامهم الغرور فينظرون إلى الناس من فوق .

وقد حذر اللّه عباده المؤمنين من هذا الطيش، وقال لهم : ﴿يأيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر اللّه ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون * وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى أحدَكم الموتُ فيقول رب لولا أخرتنى إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين﴾[1].

وفى السيرة الشريفة حث موصول على الصدقة، وزجر شديد عن الشح، وقد ثبت أن الفلسفات الكافرة التى أغوت الجماهير ما نبتت ولا نمت إلا فى بيئات الكزازة، والقسوة، والأثرة العمياء . .

مع مطلع كل صبح، ومع انطلاق الأحياء فى فجاج الأرض يحصلون ويؤثلون، يذكر النبى للناس هذه الحقائق. عن أبى هريرة أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال : «ما من يوم يصبح فيه العباد إلا وملكان ينزلان يقول أحدهما : اللهم أعط منفقًا خلفًا، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكًا تلفًا».

وفى حديث قدسى : «عبدى أنفق أنفق عليك، يد اللّه ملأى لا تغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض؟ فإنه لم يفض ما فى يده . . » .

وقد بين النبى صلى اللّه عليه وسلم أن النفقة لا تقبل إلا إذا كانت من كسب طيب، وأن اللّه كلف الرسل خاصة، والناس عامة أن يتحروا فى معايشهم الحلال وحده، فقال للأولين : ﴿يأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحًا﴾[2]. وقال للآخرين : ﴿يأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا للّه إن كنتم إياه تعبدون﴾[3].

ونشأ عن هذه التعاليم مجتمع يحنو أغنياؤه على ضعفائه، ويبرءون من عبادة المال، ويرفضون مصادره المريبة . .

وكانت سيرة الرسول أمامهم شعاعًا هاديًا فإن الرسول بإزاء الدنيا والمال كان يجمع بين منقبتى الغنى الشاكر، والفقير الصابر . .

---

(١) سورة المنافقون : ٩، ١٠ . (٢) سورة المؤمنون : ٥١ .

(٣) سورة البقرة : ١٧٢ .

نعم فقد كان ذا مال: ﴿ووجدك عائلا فأغنى﴾[1]، وكان غناه من تجارته الرابحة فى مال زوجته خديجة أيام شبابه. ثم كانت أنصبته من الخمس والفيء شيئا طائلا.

لكنه لم يستحوذ على شيء من هذا كله، بل كان يضعه فى حاجات الفقراء، وربما ظل يعطى، وظل أهل بيته كذلك حتى يستنفد العطاء كل ما لديهم، فيمسون، وليس لديهم ما يغنى من جوع..

والمعروف فى سيرته عليه الصلاة والسلام أنه- وهو فى مرض الموت- أهمته ذهيبة[2] كانت عنده فما استراح حتى وزعت على الفقراء، وتساءل: كيف يلقى الله، وهى عنده؟

والمعروف كذلك أن أملاكه ليست ميراثًا لأهله، وأقاربه، لقد وزعت هى الأخرى فى سبيل الله..

لقد كان يدعو: اللهم اجعل رزق آل محمد قوتًا -كفافا- فلما آثر الرفيق الأعلى، كان قبل أن يصل إلى السماء أشبه بسكان السماء، ترفعًا عن مطالب الأرض، وزينات الدنيا.

---

(١) سورة الضحى: ٨.

(٢) ذهيبة: تصغير ذهبة والذهب يذكر ويؤنث

فى السفر والعودة

ما أكثر ما يسافر الناس لشئون ماديـة أو أدبية، وللسفر مشقاته التى بذلت جهود كبيرة لتذليلها.

ومع ذلك فإن فراق المرء لبيته وأحبائه، وتعرضـه لتخلف عاداته فى يقظته ومنامه وشرابه وطعامـه، وانطلاقـه مع الأقـدار إلى موعـد مجهول، لا يـدرى بدقـة كيف ينتهـى؟ ولا ما يتكشف عنه المستقبل..؟ كل ذلك يجعل السفر عملا ذا بال فى حياة أى إنسان..

وقد سافر النبى عليـه الصلاة والسلام مرات فى شبابه الباكر، وأيـام عمله مع خديجة، وبعد البعثة.

وهو يصف مشاعر المسافر ورغباته بصدق، وينتهز حاجته إلى الأنيس والمعين، فيصله بربه بأشرف الذكر، وألطف الدعاء..

يقـول: «مـن أراد أن يسـافـر فليقـل لمن تخلـف: استـودعكـم اللّـه الـذى لا تضيـع ودائعه..».

ويشرح ذلك فى حديث آخر: «إن اللّه إذا استودع شيئًا حفظه».

المهم أنك وأنـت راحل عن بيتك تذكـر أن هناك من لا يغيب عن البيـت أبدًا إذا غبت أنت عنه، وهو اللّـه، وأنك إذا رجوته الحفاظ على ولدك وأهلـك، وجعلتهما وديعة لديه، عدت، وهما على خير حال..

والسفر غـالبًا يعرى الإنسـان من أقنعة تحجـب طبيعته، ويجرده من أسـانيد كانـت له ظهيرًا إبان إقامته، ومن ثم فإنه فى فترة ارتحاله يشتد حسه بما يجد، وبما يفقد.

وأدعية الرسول صلى اللّه عليه وسلم تتواءم مـع هذه الأحوال تواؤمًا مثيرًا. جاء رجل إلى

النبى يقول له : إنى أريد سفرًا، زودنى؟ قال : «زودك اللّه التقوى» قال : زدنى . قال : «وغفر ذنبك» . قال زدنى قال : «ويسر لك الخير حيث كنت» .

وعن أبى هريرة أن رجلا قال : يا رسول اللّه إنى أريد أن أسافر . فأوصنى . . قال : «عليك بتقوى اللّه والتكبر على شرف» — مرتفع — فلما ولى الرجل قال : «اللهم اطو له البعد، وهون عليه السفر» .

إن السفر الآن غيره فى أيام مضت، لقد مهدت الطرق، وجرت عليها المركبات الآلية، وجلس الناس فيها مستريحين تحملهم الأدوات المبدعة على ظهر الأرض إن شاءوا، وفوق السحب إن رغبوا .

وتقاصرت الأزمنة فما كان يتم فى شهور بشق الأنفس، أضحى يتم فى ساعات بجهود محدودة . .

ومع هذه الراحات الميسرة فإن الأخطار المبثوثة فى البر والبحر والجو لم تنعدم، وإن تكن قلت . . !

وما بقيت نسبة ما من المخاطر فإن دخول المرء فى هذه النسبة جائز جدا، والحديث عما يفاجئ المسافرين من عطب وتلف لا ينقطع، ومن هنا فاستغناء الإنسان عن حماية اللّه جنون .

إن حوادث الطرق فى العالم أجمع لا تزال أفدح من شتى الأوبئة والحميات السيئة . .

والمنايا رصد للفتى حيث سلك . . !!

كل شىء قاتل حين تلقى أجلك

وأدب النبوة فى الأسفار يوجه إلى الاحتماء باللّه، وارتقاب لطفه . كان عبداللّه بن عمر يقول للرجل إذا أراد سفرًا : ادن منى أودعك كما كان رسول اللّه يودعنا، فيقول : «استودع اللّه دينك، وأمانتك، وخواتم عملك» .

قال ابن عمر : وكان النبى صلى اللّه عليه وسلم إذا ودع رجلا أخذه بيده، فلا يدعها حتى يكون الرجل هو الذى يدع يد النبى عليه الصلاة والسلام . .

إننا بإزاء عاطفة جياشة غامرة فالرسول يستبقى يد المسافر فى يده، لا يزهد فيه ولا يتعجله، ويرسلها عندما يشاء المسافر الانطلاق لشأنه، ويدعو اللّه له بثلاثة أمور، أن

يصون دينه ، وأن يعينه على النهوض بمسئولياته التى يرتبط بها ، وأن يجعل ختام أعماله حسنًا ، فقد يخطئ أو يعثر ، ولكنه ينهض ، ويصلح أمره كله ، ويتمه على خير . .

ما يحتاج المسافر إلى أكثر من ذلك . . اللهم إلا الشعور المتجدد بما يسوق اللّه من نعم حينًا بعد حين ، وذاك ما أبانه حديث آخر . قال على بن ربيعة : شهدت على بن أبى طالب رضى اللّه عنه أتى بدابة ليركبها ، فلما وضع رجله فى الركاب قال : باسم اللّه . فلما استوى على ظهرها قال : الحمد للّه ، ثم قال : سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ـ مخضعين ـ وإنا إلى ربنا لمنقلبون ، ثم قال : الحمد للّه ـ ثلاثًا ـ ثم قال : اللّه أكبر ثلاثًا . ثم قال : سبحانك اللهم إنى ظلمت نفسى فاغفر لى ، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت .

ثم ضحك على بن أبى طالب : فقيل : يا أمير المؤمنين من أى شىء ضحكت؟ قال : إنى رأيت النبى فعل مثل ما فعلت ، ثم ضحك . فقلت : يا رسول اللّه من أى شىء ضحكت؟ قال : «إن ربك سبحانه وتعالى يعجب من عبده ، إذا قال رب اغفر لى ذنوبى ، يعلم أنه لا يغفر الذنوب غيرى» .

عندما يذنب العبد فهو يرتكب عملا فيه قبح ودمامة ، وهذا العمل بالإضافة إلى اللّه فيه معصية وجرأة . فهل يليق بالإنسان أن يسىء إلى نفسه وربه على هذا النحو؟

إنه يفعل ، مهزومًا أمام شهوة غالية ، أو منساقًا مع فكرة غبية ، فحتى متى تصرعه أهواؤه ، ويقوده غباؤه؟؟

إن اللّه عز وجل ينتظر أوبة التائب ، وهو يفرح بتوبة عبده ، ويقدر الخطوات التى ترده إلى سيده .

حسن أن يعرف العبد غلطه ، أو يحس قباحته ، وأن يتراجع خجلان إلى ولى أمره ، وولى نعمته . .

البعض يبقى مكانه تحيط به خطيئته ، كجيش انهزم ، وحصره عدوه يريد الإجهاز عليه . . ! !

وآخرون يصحون قبل فوات الأوان ، ويجيئون إلى مولاهم يقولون : ﴿ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار﴾[1] .

لقد ذكر الغافل ، وآب الشارد ، وعلم أن له ربا يؤاخذ ويعفو ، ويعاقب ، ويثيب .

---

(١) سورة آل عمران : ١٦ .

ما كان أنساه وأطغاه . . وها هو ذا قد شعر بعجزه وذله ، وشعر بأن اللّه وحده هو الذى يمسح عاره ويداوى جراحه . . ليكن ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا اللّه فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا اللّه ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون﴾(١) .

إن هؤلاء العائدين أرشد سيرة من مذنبين مصرين ، أو مذنبين يلتمسون العفو من أناس مثلهم . .

وهنا قد نسأل : لماذا يستفتح السفر بهذا الدعاء؟ الحقيقة أن السفر الطويل يحدث هزة نفسية شديدة ، وخصوصًا إذا ترك المرء بعضه ، وانطلق فى فجاج الدنيا لا يعرف متى يعود؟ إن هذه الحالة تدنيه من ربه وتقربه بما أسلف من ذنبه ، وتطلق فمه بطلب الرحمة والغفران . .

وفى رواية أخرى أن النبى صلى اللّه عليه وسلم كان إذا استوى على بعيره خارجًا إلى سفر، يقول بعد التكبير: «اللهم إنا نسألك فى سفرنا هذا البر والتقوى ، ومن العمل ما ترضى . . اللهم هون علينا سفرنا هذا ، واطو عنا بعده ، أنت الصاحب فى السفر والخليفة فى الأهل ، اللهم إنى أعوذ بك من وعثاء السفر ، وسوء المنقلب ، وكآبة المنظر فى الأهل والمال . . » .

وإذا رجع ـــ من السفر ـــ قالهن ، وزاد فيهن : «آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون» وجاء أن الرسول وأصحابه خلال السفر ـ كانوا إذا علوا الثنايا كبروا ، وإذا هبطوا سبحوا .

كأن القافلة المسافرة كلها فى صلاة ، فهى مع الهبوط فى الأودية تسبح ساجدة ، ومع الارتفاع على الربى تهتف مكبرة .

أى حياة هذه تجعل من تمجيد اللّه شغلها ، ومن ذكره ، والثناء عليه الغناء الذى يريح الأعصاب ، ويختصر الزمن . .

إن محمدًا حول وجه الأرض إلى ساحة من السماء ، مشحونة بملائكة لا ببشر . . ! !

كنت فى سفر مع ثلة من الطلاب العرب ، وكانت الطائرة التى تحملنا قد شرعت فى الهبوط بعاصمة عربية كبيرة ، وأحسست قلقًا على مستقبل أولئك الشباب بعد نزولهم ، قلت : ترى أين يسكنون؟ ومن سيعاشرون؟ ومن من شياطين الأنس يتربص الآن بمقدمهم؟

---

(١) سورة آل عمران : ١٣٥ .

وبينما أنا فى هواجسى، إذ سمعت أصوات نفر منهم يناجون اللّه بالدعاء المأثور فى هذه الحالات . . فقلت فى نفسى : لن يضيعوا، إن شاء اللّه .

أما هذا الدعاء فقد جاء أن النبى عليه الصلاة والسلام لم ير قرية يريد دخولها إلا قال حين يراها : «اللهم رب السموات السبع وما أظللن ، والأرضين السبع وما أقللن ، ورب الشياطين وما أضللن ، ورب الرياح وما أذرين ، أسألك خير هذه القرية ، وخير أهلها ، وخير ما فيها ، ونعوذ بك من شرها ، وشر أهلها ، وشر ما فيها . . » .

وفى رواية أخرى : كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إذا أشرف على أرض يريد دخولها قال : «اللهم إنى أسألك من خير هذه ، وخير ما جمعت فيها ، وأعوذ بك من شرها ، وشر ما جمعت فيها ، اللهم ارزقنا حياها ، وأعذنا من وباها ، وحببنا إلى أهلها ، وحبب صالحى أهلها إلينا . . » .

لقد استوعبت هذه الدعوات آمال الغريب النازل ببلد لا يعرفه ، وجعلته يتحرك ، وهو آوٍ إلى ربه ، مفوض إليه أمره ، مستريح إلى كفالته حيثما توجه . . ! !

والتوجه إلى اللّه بطلب الأنس والحماية لم يكن يفارق الرسول فى أى محط ينزل به ويستجم قليلا ثم يستأنف الترحال ، والفقر إلى اللّه صفة ملازمة لكل مؤمن وهو بهذا الوصف يستغنى عن الناس ، ويتحصن من متاعبهم ، عن خولة بنت حكيم سمعت رسول اللّه يقول : «من نزل منزلا ثم قال : أعوذ بكلمات اللّه التامات من شر ما خلق . لم يضره شىء حتى يرتحل من منزله ذلك» .

وكلمات اللّه التامات ، ما يكمل اللّه به فضله على خلقه ، من خزائن رحمته ، فلا يحتاجون بعدها إلى غيره ، تدبر قوله تعالى : ﴿وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا﴾[1] . وقوله : ﴿وتمت كلمة ربك صدقًا وعدلا لا مبدل لكلماته﴾[2] . والكلمات المعنية تكوينية لا تكليفية ، يأذن اللّه فيها بحماه ، وغناه لمن دعاه ، ورجاه . ! !

وعن عبداللّه بن عمر قال : كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إذا سافر فأقبل الليل قال : «يا أرض ، ربى وربك اللّه ، أعوذ باللّه من شرك ، وشر ما فيك ، وشر ما خلق فيك ، وشر ما يدب عليك» .

«أعوذ بك من أسد وأسود ـ وحش وإنسان ـ ومن الحية والعقرب ، ومن ساكن البلد ،

---

(١) سورة الأعراف : ١٣٧ . (٢) سورة الأنعام ١١٥ .

ومن والد، وما ولد». الوالد والولد قيل: هما إبليس وذريته: ﴿أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو﴾[1]. ويجوز الأراذل من أبناء آدم، فأذاهم محذور، والاستعاذة منهم واردة..

والأرض الفضاء— خصوصًا الصحراء— تكثر فيها الهوام الطائرة والزاحفة، ويتقى ما يختبئ فيها، وما يبدو عليها..

وعندما يرجع المسافر إلى وطنه وتقر عينه برؤية أحبته ينبغى أن يشكر ربه فيقول: الحمد للّه الذى بنعمته تتم الصالحات. وهى كلمة تقال فى كل ما يسر.

وينبغى أن يقول له أهل بيته: الحمد للّه الذى جمع الشمل بك، أو: الحمد للّه الذى سلمك..

وجاء أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قفل من غزو فلما دخل استقبلته عائشة رضى اللّه عنها فأخذت بيده، وقالت: الحمد للّه الذى نصرك وأعزك وأكرمك. لقد كان الناس يحسون أن رسول اللّه أعبد الخلق لربه، وأرجاهم لرحمته، وأكثرهم لهجًا بذكره، ومدحه، فلا عجب إذا نابتهم نائبة أن يجيئوا إليه ينشدون دعاءه، ويرقبون الخير معه.

عن عائشة رضى اللّه عنها قالت: شكا الناس إلى رسول اللّه صلى اللّه على وسلم قحوط المطر، فأمر بمنبر فوضع له فى المصلى، ووعد الناس يومًا يخرجون فيه، فخرج رسول اللّه حين بدا حاجب الشمس، وقعد على المنبر، فكبر وحمد اللّه عز وجل ثم قال: «إنكم شكوتم جدب دياركم، واستئخار المطر إبان زمانه عنكم، وقد أمركم اللّه سبحانه أن تدعوه، ووعدكم أن يستجيب لكم». ثم قال: «الحمدللّه رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين، لا إله إلا اللّه يفعل ما يريد. اللهم أنت اللّه لا إله إلا أنت أنت الغنى ونحن الفقراء. أنزل علينا الغيث، واجعل ما أنزلت لنا قوة وبلاغًا إلى حين». ثم رفع يديه فلم يزل فى الرفع حتى بدا بياض إبطيه، ثم حول إلى الناس ظهره، وقلب، أو حول رداءه، وهو رافع يديه، ثم أقبل على الناس، ونزل فصلى ركعتين فأنشأ اللّه عز وجل سحابة فرعدت وبرقت، ثم أمطرت بإذن اللّه تعالى، فلم يأت مسجده حتى سالت السيول، فقال: «أشهد أن اللّه على كل شيء قدير، وأنى عبداللّه ورسوله».

---

(١) سورة الكهف: ٥٠.

حدث أن سألنى شاب مغرور: أتعرف اللّه بدليل عقلى؟ فقلت له وأنا أتضاحك: أعرفه عن خبرة حسية . .

قال: ما معنى خبرة حسية؟ قلت: إن اللقيط قد يعرف بالدليل العقلى أن له أبًا، وإن كان لم يره . . لكن الابن الشرعى لا يحتاج إلى هذا الاستدلال، لأنه مغمور بحنان أبيه وإحسانه يحسهما صباحًا ومساء، إنه يعرف أباه عن خبرة حسية، كما عبرت لك . .

إننى سألت اللّه أمورًا لا يقدر عليها إلا هو، وأجابنى تبارك اسمه إلى ما طلبت، فكيف لا أعرفه بعد؟

إن الجميل يثمر فى الكلب العقور، أفلا يثمر فى إنسان عاقل؟

أترى هؤلاء الأصحاب الذين ابتلوا بالجفاف، وهددهم الجدب بهلاك الحرث والنسل؟ لقد مشوا إلى محمد كيما يدعو ربه، كيما تجمعهم وإياه ساحًا ضراعة، ورجاءز

وأمهم كما رأينا فى صلاة استسقاء ما كادت تنتهى حتى استهل المطر يهمى، ويبشر بربيع نضير.

بم تصف إيمان هؤلاء بعد ذلك؟ لقد تجاوزوا مرحلة الإيمان النظرى إلى مرحلة أزكى وأرقى، إن كل ما قاله الرسول صلى اللّه عليه وسلم، بعد نزول الغيث: «أشهد أن اللّه على كل شىء قدير، وأنى عبداللّه ورسوله». والشهادة هنا منزلة فوق اليقين المجرد . .

قال لى الشاب المسكين: لقد تعلمنا أن المادة لا تفنى، ولا تستحدث وهو كلام يزلزل الإيمان، لولا حرارة ما أسمع . .

قلت: يا بنى إن الذين كتبوا هذا الكلام ذكروا نصف المعرفة بعد ما حرفوه عن موضعه.

إن رب المادة هو الذى لا يفنى ولا يستحدث، أما أنا وأنت فقد صح لنا وجود بعد أن لم نكن . . أنا وأنت لسنا أزليين . . ترى من أوجدنا فى بطون الأمهات؟ الأرطال الخمسة من الأجهزة اللحمية التى تملأ تجويف البطن؟ أهذه هى التى دفعت الأجنة لتخرج إلى الجو صارخة بعدما حرك الهواء الخارجى رئاتها؟

إننى أحتقر الغباء وكل ما ينتج عنه من أحكام . . فدعنى من مساخر هؤلاء الماديين . .

ربما ظن الطفل أن تحرك الصورة فى المرآة يحدث من الصورة نفسها أو من سطح المرآة المصقول، وبعد قليل من رشد سوف يدرك أن هذا التحرك يجىء من الجسم الذى يثبت الصورة، لا من الصورة المتوهمة.

وناس كثيرون فى طفولتهم العقلية ينسبون إلى المادة ما لا تعيه ولا تستطيعه، وقد تساءلت: من الذى صنع زخارف البصمات على أطراف الأصابع؟ الجلد نفسه؟ إنه منفعل لا فاعل..

ولنترك عالم الجسم ـ على ما به من إبداع ـ إلى عالم أرقى، من الذى صنع الذكاء والغباء فى عقولنا؟ أو من الذى صنع النزق والأناة فى طباعنا؟ لننظر حولنا إلى «جندى مجهول» قام بهذا العمل الخارج، أنجد أحدًا من الناس؟ أنجد عنصرًا من العناصر؟

إن الأغبياء يُتيهون أنفسهم عن اللّه عمدًا، ويحاولون تجاهل القدرة العليا ببلاهة سمجة.. وليس ذلك هو العجب، بل العجب أن من يفعل ذلك يريد أن يصف نفسه، بالعلم، والتقدم، وألقاب أخرى..!!

ومن قديم جحد ناس كثيرون عمل اللّه فى كونه، ونسبوا العمل إلى أقرب مظهر له، كما ينسب الطفل تحرك الصورة فى المرآة.. إلى المرآة..

قال زين بن خالد الجهنى: صلى بنا رسول اللّه صلاة الصبح بالحديبية ـ إثر مطر سقط ليلا ـ فلما انصرف أقبل على الناس فقال: هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: اللّه ورسوله أعلم. قال: قال اللّه: أصبح من عبادى مؤمن بى، وكافر.

فأما من قال: مطرنا بفضل اللّه ورحمته، فذلك مؤمن بى كافر بالكواكب.

وأما من قال: مطرنا بنو كذا وكذا فذلك كافر بى مؤمن بالكواكب.

إن الذين يظنون الأشياء تحدث دون تقدير إلهى وهيمنة عليا ـ وهم فى دنيانا الآن كثر ـ كفار حقا..

أما الذين يعرفون أن اللّه خالق كل شيء، وسائق كل فضل، فهم المؤمنون حقا..

وسواء نسبوا العمل إلى اللّه، أو نسبوه إلى خلقه مجازا فهم مؤمنون بلا ريب، فمن قال: أنضج الصيف الفاكهة، يقصد أن الحرارة سبب الإنضاج، فهو مؤمن ولم يقل نكرًا، لأنه عارف أن اللّه هو الذى أخرج الزرع، وتفضل به على خلقه، إنما الإثم على من خلا من اللّه قلبه، وفكره ونسب الأشياء إلى أدنى سبب منها، وأبى أن يعترف بألوهيته وراء ما نلمح من أسباب وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم بين الحين والحين يكشف الغطاء عن الأسباب العادية، ويبين قيمتها ليربط الناس بربهم، ويجعل ذكره بين أعينهم.

واللّه عز وجل لطفًا منه بعباده قد يحرمهم ما يحتاجون إليه ليسارعوا إلى ساحته طالبين ، ويسألون ملحين ، فإذا أعطاهم أنعش مشاعر الشكر فى أفئدتهم ، وعادوا ، وقد ربا إيمانهم . .

وصلاة الاستسقاء ، والحاجة ، والاستخارة شرعت لذلك . .

وقد رأيت الناس فى مكة ـ إذا تأخر المطر ـ هرعوا إلى الصلاة ، وصاحوا يطلبون النجدة من السماء ، فما هى إلا أيام حتى ينزل الغيث . .

ولقد رأينا على عهد رسول اللّه أن الإجابة تعقب السؤال . . ما كاد النبى صلى اللّه عليه وسلم يدعو حتى تستهل السماء ، وتبدأ الأنهار تتكون . .

الغريب أنه فى شرق أفريقية وغربها وقع جفاف أهلك البلاد والعباد وما فكر أحد فى صلاة استسقاء ، لأن اللّه لا يُعرَفُ ولا يقْصَدُ ! ! وتلك سمات الحضارة المادية ، وآثارها كما نقلها الاستعمار إلى الأقطار التى نكبت به . .

متاعب الدنيا

البشر محكومون بقوانين اللذة والألم، قد يضعفون مع المتاعب إلى حد الهوان . . وقد يشتدون مع المنافع إلى حد الطغيان . . والمطلوب من المؤمن الكيس ألا يزيغ، ولا يطغى، وأن يظل متماسكًا على حاليه كلتيهما . .

وهو ما بقى حيا لن يستريح من اختبار، وتلك طبيعة الفترة التى نقضيها فى هذه الدنيا .

والآلام تكشف الضعف الإنسانى، وتدفع العاقل دفعًا إلى الوقوف بباب اللّه يطلب العافية، ويرجو رحمة ربه، ومطلوب من المؤمن أن يلجأ إلى اللّه فى كل ما ينوبه، ولو كان تافها، قال رسول الله صلى اللهّ عليه وسلم : «ليسترجع أحدكم فى كل شىء حتى فى شسع نعله، فإنها من المصائب» ـ والشسع رباط الحذاء .

والمقصود من ذلك أن يعول المسلم فى شئونه كلها على معونة اللّه، وألا يتصور انقضاء شىء منها دون إذنه تعالى، ولو كان لا يلقى له بالا، فإن مصالح المرء صغراها، وكبراها مرهونة بالتوفيق الأعلى .

فإذا عظم الخطب اشتد إلى اللّه فزعه، وطالت ضراعته . فعن ثوبان أن النبى صلى اللّه عليه وسلم كان إذا راعه شىء قال : «هو اللّه، اللّه ربى لا شريك له» . وكان يعلم أصحابه عند الفزع هذه الكلمات :

«أعوذ بكلمات اللّه التامة من غضبه، وشر عباده، ومن همزات الشياطين، وأن يحضرون» .

وعن زيد بن ثابت رضى اللّه عنه قال : شكوت إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أرقًا أصابنى فقال : «قل : اللهم غارت النجوم، وهدأت العيون، وأنت حى قيوم لا تأخذك

سنة ولا نوم . . يا حى يا قيوم أهدئ ليلى وأنم عينى» . فقلتها ، فأذهب اللّه عز وجل عنى ما كنت أجد . . !!

وظاهر أن الرسول الكريم يتأول آية الكرسى ، أعنى كلماتها الأولى ، فيستوقف المرء الفقير إلى النوم ، والاستغراق أمام الملك الذى يدبر ما سكن فى الليل والنهار، ولا يغفل لحظة . .

وعندما يقف الإنسان فى إطار ضعفه أمام ذى العزة والملكوت ، فإنه يعود ملء اليدين بالخير. .

وقد أمرنا أن ندعو اللّه بأسمائه الحسنى ، واللّه يحب أن يمدح ، ولذلك جاء فى الحديث : «ألظوا ـ ألحوا ـ بيا ذا الجلال والإكرام» .

وقد ذكرنا أن النبى عليه الصلاة والسلام أعلم الناس باللّه ، وأتقاهم له ، وأبصرهم بمجال أسمائه الحسنى فى آفاق الكون والحياة ، وأسرعهم إلى ما تتطلبه من مشاعر الصبر والشكر، والتحية والحمد . .

ويظهر لمؤرخى السيرة الشريفة أن التجارب التى مر بها قبل البعثة وبعدها أنضجت الكمال الإنسانى فى شخصه إلى حد لا يتكرر فى الدنيا ، على أن أحدًا من الخلق ـ مهما كان قدره ـ لا يفرض صداقته على اللّه ، بل اللّه هو الذى ـ إذا شاء ـ أحب واصطفى . .

وعندما يحب ويختار يسوق الأحداث التى ترفع القدر، وتزيد الأجر، ويغلب أن تكون جسيمة فادحة تنفى الراحة ، والقرار الناعم . .

ومن هنا بدأ النبى الخاتم حياته يتيمًا يحتاج إلى الكافل الحانى ، ولكن اللّه آواه ، وبدأ حائرًا لا يبصر المنهج ، ولا يدرى من حكمة الحياة شيئًا ، ولكن اللّه علم وهدى . . وبدأ فقيرا يكدح ليحيا ، ويضرب فى أرجاء الأرض ليصون وجهه وعرضه ، ولكن اللّه أغنى .

وفى صفة هذه البداية وفى تقرير ما يترتب عليها يقول اللّه تعالى : **﴿ألم يجدك يتيمًا فآوى* ووجدك ضالا فهدى* ووجدك عائلا فأغنى* فأما اليتيم فلا تقهر* وأما السائل فلا تنهر * وأما بنعمة ربك فحدث﴾**[1] .

والنعمة الوسطى بين هذه النعم الثلاث ، الهدى بعد الضلال ـ كما عبر السيد وهو يخاطب عبده ـ احتاجت إلى سورة لتوضحها ، وتكشف حقيقتها ، وهى سورة الانشراح ،

---

(١) سورة الضحى : ٦ـ١١ .

فإن النبى عليه الصلاة والسلام نشأ فى بيئة أثقلتها الجاهلية بأنواع التخلف، ومع ما فيها من سوء فهى أزكى وأسلم من البيئات التى ملأها أهل الكتاب بالتزوير والغش.

وقد عاف النبى مآثر الجاهلية، كما رفض شرود النصارى واليهود، فما عساه يصنع؟ لا شيء.. لقد اعتزل بفطرته النقية بعيدًا، ضائقًا بأحواله وأحوال الآخرين، فهو ما يستطيع أن يسدى لأحد علمًا، ولا لنفسه، فمن أين له؟

والإنسان ذو الحسن المرهف تشقيه أزمات الضمير والفكر، وتجعل الحياة فى عينه أضيق من سم الخياط، وما يعزيه متاع الدنيا كلها لو أتيح له، كذلك كان محمد حتى فجأه الوحى.

وفى ذلك يقول اللّه له: ﴿ألم نشرح لك صدرك﴾؟ بفيض الحقائق الأدبية التى ألهمتها؟: ﴿ووضعنا عنك وزرك﴾ انزاح الحمل الثقيل الذى كان يبهظك وأنت مستوحش حائر منقطع؟ ﴿الذى أنقض ظهرك﴾ لقد كنت بهذا الحمل تهرب من المجتمع، وتأسى لنفسك ولغيرك، وتألم لعجزك، وغربتك عما حولك..

ثم اجتباك اللّه.. ومن أرفع ممن يختاره رب الأرض والسماء ليهديه ويهدى به العالمين؟ ﴿ورفعنا لك ذكرك﴾.

وسنة الحياة كذلك، الجد والجهد والتصبر يتبعها الثمر: ﴿فإن مع العسر يسرًا * إن مع العسر يسرًا﴾.

والمطلوب منك ـ بعد ـ إذ فرغت من العمل أن تستأنف العمل، لا مجال للراحة: ﴿فإذا فرغت فانصب* وإلى ربك فارغب﴾[1].

هكذا رأينا الإيواء بعد اليتم، والهداية بعد الحيرة والتوقف، والغنى بعد العيلة.

والمعاناة التى ظهرت فى حياة النبى الخاتم جعلته دقيق الإحساس بآلام الناس، فهو يحزن لها، ويسارع إلى تجفيفها، أو تخفيفها، وكان حسه شاملا لمختلف الآلام المادية والأدبية، فهو يود أن ينفيها كلها عن حياته، وحياة غيره..

ومن الذى يقصد وجهه ويلتمس حماه عند هجوم البأساء والضراء؟ اللّه وحده، إنه الحرز الآمن، والمأوى الحصين، ومن ثم ذكره، ودعاه بإلحاح، وأدب.

وهو عندما يجأر بأسماء اللّه الحسنى يعلم الألوف المؤلفة أن هذا هو الطريق فاسلكوه،

---

(١) سورة الانشراح: ١ ـ ٨.

هذا هو الأمل فانشدوه : ﴿وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعانِ فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون﴾[١] .

إن محمدًا ليس كاهنًا يقول للمذنبين : تعالوا إلى معترفين أغفر لكم ، تعالوا إلى مثقلين مرهقين أخفف عنكم وأرحمكم . . كلا إنه يقول : ادعوا اللّه معى ، ادعوا اللّه لأنفسكم ، وأنا وأنتم ومن فى السموات أصفار إن لم يشأ هو أن يجعلنا شيئًا . . إنه يجير ولا يجار عليه ، ويحكم لا معقب لحكمه ﴿وإن يمسسك اللّه بضر فلا كاشف له وإن يمسسك بخير فهو على كل شىء قدير﴾[٢] .

ونثبت فى هذا المجال جملة من الأدعية التى كان يدعو بها ، ويرغب إلى المؤمنين أن يتقربوا إلى اللّه بترديدها :

«اللهم إنى أسألك موجبات رحمتك ، وعزائم مغفرتك ، والسلامة من كل إثم ، والغنيمة من كل بر ، والفوز بالجنة ، والنجاة من النار» .

«اللهم ألهمنى رشدى ، وأعذنى من شر نفسى» .

«اللهم إنى أعوذ بك من الجوع فإنه بئس الضجيع ، وأعوذ بك من الخيانة فإنها بئست البطانة» .

«اللهم إنى أعوذ بك من البرص ، والجنون ، والجذام ، وسيئ الأسقام» .

«اللهم إنى أعوذ بك من شر سمعى ، ومن شر بصرى ، ومن شر لسانى ، ومن شر قلبى» .

«اللهم إنى أعوذ بك من فتنة النار ، وعذاب النار ، ومن شر الغنى والفقر» .

«اللهم إنى أعوذ بك من منكرات الأخلاق ، والأعمال ، والأهواء» .

«اللهم إنى أعوذ بك من العجز والكسل والبخل والهرم وعذاب القبر» .

«اللهم آت نفسى تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها» .

«اللهم إنى أعوذ بك من علم لا ينفع ، ومن قلب لا يخشع ، ومن نفس لا تشبع ، ومن دعوة لا يستجاب لها» .

---

(١) سورة البقرة : ١٨٦ .　　　(٢) سورة الأنعام : ١٧ .

«اللهـم إنى أعـوذ بـك من زوال نعمتـك، وتحول عافيتـك، وفجـأة نقمتك، وجميـع سخطك».

«اللهم إنى أعوذ بك من شر ما عملت، ومن شر ما لم أعمل».

«اغفر لى خطيئتى وجهلى، وإسرافى فى أمرى، وما أنت أعلم به منى».

«اغفر لى جدى وهزلى، وخطئى وعمدى، وكل ذلك عندى».

«اللهم إنى ظلمت نفسـى ظلمًا كثيرًا، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفـر لى مغفرة من عندك، وارحمنى إنك أنت الغفور الرحيم».

«اللهم اهدنى وسددنى».

«اللهم إنى أعوذ بك من العجز والكسـل والجبن والبخل والهرم، وأعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المحيا والمات، وضلع الدين، وغلبة الرجال».

«اللهم اغفر لى، وارحمنى، وعافنى، وارزقنى».

«اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك».

«اللهم إنا نعوذ بك من جهد البلاء، ودرك الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء».

«اللهم اغفر لى، وارحمنى، واهدنى، وعافنى، وارزقنى».

«اللهم إنى أسألك الهدى، والتقى، والعفاف، والغنى».

«اللهم اغفر لى ذنبى كله، دقه وجله، وأوله وآخره، وعلانيته وسره».

«اللهم إنى أعوذ بك من شر الخلق، وهم الرزق، وسوء الخلق».

«اللهم إنى أعوذ بك من الشقاق، والنفاق، وسوء الأخلاق».

«اللهم لك الحمد كله، ولك الملك كله، وبيدك الخير كله، علانيته وسره، ولك الحمد إنك على كل شـىء قدير. اغفر لى ما مضـى من ذنوبى، واعصمنى فيما بقـى من عمرى، وارزقنى أعمالا زاكية ترضى بها عنى، وتب على».

«اللهم إنى أعـوذ بك من الفقر إلا إليـك، ومن الذل إلا لك، ومـن الخوف إلا منك، وأعـوذ بك أن أقـول زورًا، أو أغشى فجـورًا، أو أكون بـك مغـرورًا وأعوذ بـك من شماتـة الأعداء، وعضال الداء، وخيبة الرجاء، وزوال النعمة، وفجاءة النقمة».

«اللهـم إنى أعـوذ بك مـن العطـب ، والنصب ، وأعـوذ بـك من وعثـاء السفر وسـوء المنقلب» .

«اللهم إنى أعوذ بك من الزيغ ، والجزع ، وأعوذ بك من الطمع فى غير مطمع» .

«اللهم إنى أعوذ بك من الفتن ما ظهر منهـا وما بطن ، وأعوذ بكلمات اللّه التامات من شر ما خلق» .

«اللهم إنـى أعوذ بـك أن أظلم أو أظلم ، أو أبغـى أو يبغى على ، أو أطغـى أو يطغى على» .

«اللهم اجعلنى لك ، ذكارًا لك ، شكارًا لك ، مطواعا لك ، مخبتًا إليك أواهًا منيبًا . رب تقبل تـوبتى ، واغسـل حوبتـى ، وأجب دعـوتى ، وثبـت حجتى ، واهـد قلبى ، وسـدد لسانى ، واسلل سخيمة صدرى» .

«اللهم زدنا ولا تنقصنا ، وأكرمنا ولا تهنا ، وآثرنا ولا تؤثر علينا ، وأرضنا وارض عنا» .

حسبنا هذا القدر من توجه محمد إلى ربه ، وقبـل أن نتدبر بعض ما سقنا نسأل : هل فى تاريخ القارات الخمس بشر أحب اللّه تبارك وتعالى بأحر من هذه العواطف؟

هل فى تاريخ القارات الخمس عابد ضارع إلى اللّه بأخلص من هذه العبارات .

إننا نقـول لمن يستغربون اتبـاعنا لمحمد : هـاتوا لنـا بشرًا مثله ، له بـاللّه أزكى مـن هذه العلاقة ، ونحن نتبعه . .

إننـا نحن الـذين نـرثى لمن جهـل محمدًا أو عـاداه ، ونستغرب العمـى الذى حجبهـم عنه . . .

إن أفئـدة الخلائـق ـ حين تهتـدى ـ وراء فـؤاد محمد وهو ينبض بتـوحيد اللّه وتمجيده ، وجوارحهـا ـ حين تخضـع ـ وراء كيانـه حين يتـابع بين ركوعـه وسجوده . . تكـون فى أزكى أحوالها وأشرفها . . نعم إن الإنسانية الراشدة يمثلهـا هذا العلم المفرد ، الذى تفانى فى ذكر اللّه وطاعته .

وإذا افترضنا أن كـل ما يمتلـك قلب المرء دون ربـه صنم ، سـواء فى ذلك المال والهوى وحب النفس ، وحب الغير ، فإن الإنسان الذى حطم الأصنام كلها ، وجعل المرء للّه وحده هـو محمـد . . الذى امحت مـن بصيرتـه ظـلال الأشيـاء ، ولم يبـق فيها إلا إجـلال اللّـه ، وإعظامه . .

وراء ذلك التقى النقى تقف جماهير هائلة من القانتين، وقلب كل منهم يؤمن على دعائه وهو يهتف بربه: «اللهم اجعلنى لك، ذكارًا لك، شكارًا لك».

والأدعية التى أثبتناها فى هذا الفصل تشير إلى جملة أمور:

أولها: أن الرسول يكره المرض، خصوصًا العضال منه، ومن منا يحب أنواع الحمى والسرطان؟ إيثار العافية فطرة اللّه فى الأنفس، وما يحب الأوجاع إلا مختل المزاج.

ومن ثم رأينا النبى عليه الصلاة والسلام يدعو ربه طالبًا سلامة الحواس والأعضاء، مستعيذًا به من السقام، والعجز، والهرم.

والمعروف من سيرته صلى اللّه عليه وسلم أنه كان متين البنيان يهزم المصارعين، ويسير المسافات الشاسعة دون إعياء، ويحمل أعباء الجهاد دون نكوص..!!

والمرء يدهش لأناس يجعلون النحافة والشحوب أمارات التقوى، قد ظهر هذا الخلل بين الهنود أولا، ثم نقله النصارى إلى عناصر الرهبانية ثم نقله جهلة الصوفية إلى الإسلام.

ونشأ عن ذلك أن البعض اعتبر الفحولة» قدحًا فى الإنسانية أو نقصًا فى السمو الروحى.. كأن المخنثين وأشباههم يصعدون إلى مستوى الملائكة بالضعف الجنسى..

الواقع أن محمدًا كان مثالا عاليًا للبشر، صادقًا مع منطق الطبيعة، عندما سأل اللّه البعد عن الآفات والعلل، فإذا عرا المرء شىء بعد ذلك من المتاعب صبر عليه وسلم للّه فيما أراد، وقال كما علمنا اللّه: ﴿**إنا للّه وإنا إليه راجعون**﴾.

الأمر الثانى: أعلن النبى كرهه للفقر والدين، وشتى الأزمات التى تعكر الصفو وتذل الناس، وعندى أنه من السخف تحبيب العيلة إلى الناس باسم اللّه.

والفرق بارز بين الكفاية الواجبة، والزيادة المغرية بالطغيان والعبث وقد يتفاوت حد الكفاية بين شخص وآخر، والمهم أن صاحب الرسالة كان يسأل اللّه— كما جاء فى بعض الآثار— عيشًا قارًا، ورزقًا دارًا، وعملا بارًا.. وكان كثير الدعاء: «ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار».

فإذا عرض حصار، أو وجب كفاح، تحمل القلة بجلد، ولم يفقد البشاشة، والاتزان..

وإذا أقبل الكثير صرفه إلى الآخرين بسماحة ورغبة، وهناك يقين بأن شيئًا من أعراض

الدنيا لم يملكه ، بل أمره كما جاء فى دعائه : «اللهم اجعل حبك أحب إلى من نفسى ، وأهلى ، ومالى ، وولدى ، ومن الماء البارد على الظمأ» . .

الأمر الثالث : هناك ناس يكرهون من فوقهم ويحقرون من دونهم وهذا الصنف السيئ يملأ جنبات المجتمع ، وقد أعلن عليه الإسلام حربًا صريحة فقال النبى عليه الصلاة والسلام : «ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا ، ويعرف لعالمنا حقه» .

والنبى الكريم يلقى الناس بشعور واحد ، إنه لا يريد أن يكون جبارًا فى الأرض أو ملكًا على العباد ، إنه لا يريد علوًا فى الأرض ولا فسادًا ، وفى الوقت نفسه يجب أن ينجيه اللّه من استطالة السفهاء ، وجور المعتدين . .

من أجل ذلك كثر فى دعائه الاستعاذة من الفتن والبغى والغدر والجهل ، وكل ما يخدش كرامة الإنسان الكريم على نفسه . .

ومع ذلك قبل أن يهون فى ذات اللّه ويشتم ويروع . . وكل ما حرص عليه ألا يكون غاضبًا منه : « . . إن لم يك بك على غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك أوسع لى» .

وهنا نقرر حقا للنبى عليه الصلاة والسلام نبهنا إليه ، ورغب إلينا فيه هو أن نصلى عليه . . وما معنى الصلاة عليه؟ إنها استرحام مقرون بالثناء . .

أى أن المؤمنين يسألون اللّه لنبيهم محمد ، علو شأن ، وزيادة فضل كفاء ما أسدى لهم من جميل ، وقام به من جهاد . . ! !

وقد أمرنا اللّه أن نصلى على نبيه ، وأخبرنا أنه ـ تبارك اسمه ـ يصلى هو وملائكته على هذا النبى الكريم ، كما جاء فى القرآن أن اللّه وملائكته يصلون على المؤمنين ، فما معنى هذه الصلوات؟

ظاهر من الصلاة على المؤمنين أنها توفيق لهم وبركة فى سعيهم ، وأنها عون من اللّه لإخراجهم من الحيرة والشرود والمضايق إلى السعة والضياء والاستقامة ، وهى نابعة من رحمة اللّه وفضله ، وذلك ما تشير إليه الآية : ﴿هو الذى يصلى عليكم وملائكتُه ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيما* تحيتهم يوم يلقونه سلام وأعد لهم أجرًا كريمًا﴾[1] .

---

(١) سورة الأحزاب : ٤٣ ، ٤٤ .

ويزداد هذا العطاء للمصابين من أهل الإيمان، الذين يختبرون فى أنفسهم وأموالهم، فلا يهتز يقينهم، ولا تنتهى باللّه صلتهم، بل يسلمون ويسترجعون: ﴿أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون﴾[1].

فإذا كان المؤمنون الصابرون يلقون من اللّه هذه الحفاوة، فكيف بالإنسان الذى حمل الجهد الأكبر فى غرس الإيمان، ووقف دونه يذود شياطين الإنس والجن، وربط حياته بهذه الغاية الشريفة، فلا هم له إلا هداية الناس، ولا فرحة له إلا أن يعبد اللّه فى الأرض؟

إن الملأ الأعلى يرقبون كفاحه بإعجاب، ويدهشون كيف ـ وهو الفرد الضعيف المتجرد ـ هزم المبطلين، ومحا جاهليتهم، وأقام دولة التوحيد وأمته الكبرى . .

ذاك معنى قوله سبحانه وتعالى: ﴿إن اللّه وملائكته يصلون على النبى يأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً﴾[2]. إن صلاتنا عليه تصديق برسالته وانتصار لها، وولاء لصاحبها، وتحية إعزاز وحب . . إنها الرباط الجامع بين القائد وجنده، أو الإمام وأتباعه على طاعة اللّه، والتزام نهجه، والبقاء عليه إلى يوم اللقاء الأخير . . !!

ذلك . . وكل شىء فى الكون يشارك فى التسبيح للّه والصلاة له: ﴿ألم تر أن اللّه يسبح له من فى السموات والأرض والطير صافّات كل قد علم صلاته وتسبيحه واللّه عليم بما يفعلون﴾[3]؟

ونحن نؤثر فى الصلاة على رسول اللّه ما ورد من صيغ سهلة واضحة، ونكره الصيغ المتكلفة أو المبهمة التى ألفت لها كتب، وانعقدت مجالس واخترعت للنبى العظيم أسماء ما أنزل اللّه بها من سلطان . .

وليس المهم ترديد عبارات بليغة وإنما المهم عرفان الجميل للنبى الصالح المصلح، وتقدير الجهاد الذى محا به ظلمات الجاهلية وكشف أشباحها. وأسس دولة للحق أعزت من يستحق العزة، وأهانت من يستحق الهوان . .

هذا هو المعنى الحقيقى للصلاة على النبى. وهو ما رصدت له الأجور المروية فى هذه القضية، لا ما يهرف به أدعياء الحب الذين لا يثبتون فى الدفاع عن سنة، أو حماية شعيرة . .

---

(١) سورة البقرة: ١٥٧ .　　(٢) سورة الأحزاب: ٥٦

(٣) سورة النور: ٤١ .

نعم فى المجاهدين عـن الدين والمقدرين لرسوله يسـاق الحديث : «من صلى على صلاة صلى اللّه عليه بها عشرًا» وحديث عبداللّه بـن مسعود أن رسول اللّه قال : «أولى الناس بى يوم القيامـة أكثرهم على صلاة» وعن أبـى هريرة : «لا تجعلوا قبرى عيـدًا ، وصلوا على فإن صلاتكم تبلغنى حيث كنتم» .

ولعالم الأرواح سنن فـوق ما ندرك فى عالم المادة تجعل هذا البلـوغ ميسورًا ، ولا نحب أن نوغل فى هذه الأمور.

وفيما قرأنـا ، ونقرأ مـن أدعية النبى الكـريم نرى طـول نفسه فى الاستغفـار، كما نرى أن القرآن الكريـم نسب إليه ما نسبـه هو إلى نفسه من ذنـوب غفرت له بفضل اللّـه فما معنى ذلك؟ وماذا صنع مما يؤاخذ به؟؟

ونحـن نجيب على ذلـك بهدوء ، فإن صفحـة محمد صلى اللّـه عليه وسلـم هى أنقـى صفحة بين أهل الأرض والسماء ، ومـا نعرف أحدًا تبعته الأبصـار فى صغره وكبره ، ويقظته ومنامه ، وسره وعلنه ، كما تبعت محمدًا وأحصت عليه كل شىء . .

وماذا قال أعداؤه عنه مما يخدش البطولة أو ينقص المروءة؟ . . لا شىء . . !!

ما نقم منه الناقمون إلا أن الضربات التى كالها للبـاطل ظل يترنح منها إلى آخر الدهر، وأن منهجه فى تـوحيد اللّه ، وتحشيـد الناس على عبـادته ، لم يقترب منه أحـد من الأولين ، والآخرين . .

ولم ينسب إليــه ـ ولـو بطريق الكذب ـ ما نسبه أهل الكتـاب إلى أنبياء اللّه من سكر، وزنى ، وقتل ، وختل . . !!

وأنبياء اللّه كلهـم براء من هذا الاختلاق ، وإمامهـم الشامخ محمد بن عبـداللّه أسمى قدرًا ، وأعز مكانًا . . !!

إذن فمم الاستغفار؟ إن التفاوت بين النفوس كبير جدا ، وذلك أن ما تملك من طاقات مـادية وأدبيـة يختلف اختـلافًـا واسعًا ، ومـوقفها ممـن وهـب لها هو الـذى يحدد نجاحهـا ورسوبها ، أو تقدمها وتأخرها ، ولا عبرة بظاهرة العمل .

إن الأرنب يقدر فى لحظات على اجتياز عـدة أذرع على حين تستغرق السلحفاة فى ذلك أمدًا ، ولا مكان للومها على بطئها إذا كانت قد بذلت وسعها . .

والبشر ليسوا سواء فى هممهم ونظـراتهم وإمكاناتهم وهو مسئولون أمـام اللّه على قدر ما

وهب لهم من تلك الأنصبة ، ومعنى ذلك أنه قد يقبل من أحدهم ما يرفض من الآخر، ولعل ذلك معنى قول أبى الطيب :

ويختلف الرزقان ، والفعل واحد ... إلى أن يرى إحسان هذا لذا ذنبا

نعم ، قد تكون الحسنة من هذا سيئة من ذاك ، لبعد ما لدى كليهما من مواهب عقلية وحسية ، ولذلك قالوا :

«حسنات الأبرار سيئات المقربين» ! ! !

والواقع أن ما يقبل من شخص عادى قد يعد هنة من رجل عبقرى ، ومن هنا يمكن القول بأن ما ينسب ـ حينًا ـ إلى الأنبياء من ذنوب إنما هو على مقدار درجاتهم ، وإن هذه الذنوب ليست ما يواقع العامة من كبائر أو يتلوثون به من أوحال . .

وقد كتب الأستاذ العقاد مقالاً عن المقاييس الأدبية جاء فيه أنه ينبغى فى بعض الأحوال النظر إلى من قال لا إلى ما قيل . . فإن أبا العلاء المعرى عندما ينشد :

تعب كلها الحياة فما أعـ ... ـجب إلا من راغب فى ازدياد

فإنه لا يعنى ما يعنيه الحمالون فى محطات السكة الحديد ، أو ما يعنيه الفلاحون ، وهم ينقلون الأتربة ، والبذور . .

وهذا كلام حسن ، ومن السخف تصور المرسلين يقترفون خطايا الدهماء إن ما يستغفرون له من أخطاء شىء آخر يتفق مع معادنهم المنتقاة .

والنسبة أمر لابد منه ، فركاب الطائرات قد ينظرون من مكانهم العالى إلى ركاب القطارات ، ولكن ركاب السفن الفضائية يضحكون من ركاب الطائرات . . ويأخذ الأمر صفة أخرى عند سكان الكواكب . .

على أن هناك منطقًا آخر يتمم هذه النظرة التى شرحناها فيما ينسب إلى الأنبياء من ذنوب . . إن الإنسان الواحد ـ فيما يمر به من أطوار الكمال ـ يمكن أن يكون عدة أناس . . إنه يرقى من سماء إلى سماء وحاله فى الأولى أدنى من حاله فى الأخرى ، وهو ـ إذ ينظر إلى دنوها بالنسبة إلى ما صار إليه ـ يستغفر ربه ، ويستصغر ما قدم له ، ويعده فعلا رديئًا ما كان ينبغى منه ، وكلما مضى فى معراج الارتقاء ، وتكشف له من آيات الجمال الأعلى ازداد ولها بالتمجيد والتحميد ، وازداد كذلك لهجًا بالتوبة والاستغفار . .

ونحن على صعيدنا القريب عندما نرمق محمدًا صلى اللّه عليه وسلم فى عبادته وقيادته نرى أنه فى فلكه العالى يرتفع من أفق إلى أفق، فآيات القرآن تزيد يومًا بعد يوم، ومراحل الجهاد تطرد مرحلة بعد مرحلة، وأعباء الهداية العامة تشتد وطأتها، وتنداح دائرتها . .

إن الذى صاح على الصفا يدعو عشيرته الأقربين أخذ يكاتب ملوك العصر وجبابرة الأرض . . والذى خاصم نفرًا يعدون على الأصابع أول أمره شرع يعد الجيوش لمقارعة الضلال وكسر كبريائه . . ولمن هذه المعاناة الموصولة فى جهاد النفس وجهاد الناس؟ للّه وحده . .

لقد قام الليل إلا قليلا من أول أيام البعثة . . ومضى على الدرب الطويل يواصل الصلاة والصيام والعطاء، ويقاوم الوثنية والخرافات وعوج الجهال والمتعالمين . . هل استراح يومًا؟ كلا . . كلما شعر أن اللّه اختاره لهذه الرسالة أفنى قواه فى البلاغ والجهاد، وحطم العوائق ومضى فى إعلاء اسم اللّه، فلا عجب إذ تنزل عليه قبيل الفتح الأكبر: **﴿إنا فتحنا لك فتحًا مبينًا * ليغفر لك اللّه ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك﴾**[1].

إن الغفران هنا ليس لذنوب واقعة أو متوقعة، وإنما هو تبشير المجاهد فى سبيل ربه بأنه نجح فيما كلف به، وأن الشعور بالتقصير أو العجز عن الوفاء بحقوق اللّه كما يحسها القائد الضخم أمر متجاوز عنه .

لا ذنوب هنا مما يألف العوام، إنما هو إحساس نبى الأنبياء، بأنه - وإن أذاب نفسه فى مرضاة ربه - فهو مقصر فى حقه، متخلف عن أداء واجباته العظام . .

من أجل ذلك كرمه اللّه، وساق له البشرى . .

وعندما يقول اللّه لعبد: غفرت لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فليس معنى هذا إسقاط التكاليف، وإعطاء المرء حرية أن يفعل أو يترك . . هذا فهم بادى السوء والغفلة، وإنما المراد أن العبد بلغ مستوى من الرفعة لن ينحدر عنه، وأن مستقبله لن يكون إلا امتدادا لحاضر طيب موصول باللّه مراقب له . .

وقد وعد الرسول بهذه المغفرة الشاملة، كما أن الرسول بشر بهذه المكانة أهل بدر، وعثمان ابن عفان لما أعطى مالا ضخمًا فى غزوة العسرة .

---

(١) سورة الفتح: ١، ٢.

وفى الصحيح أن اللّه بشر بهذه المنزلة الرجل التائب الذى يستغفر اللّه من قلبه فى أعقاب ذنبه قائلا : «علم عبدى أن له ربا يغفر الذنب ويؤاخذ به . . افعل ما شئت فقد غفرت لك» . .

إن المفهوم من هذا أن اللّه يكتب للعبد حقه أو صفته من الحال الثابتة التى بلغها فى حياته ، ويسجلها له قبل وفاته ، لأنه يعلم منه أنه لن يتعرض بعدها لنكسة . .

هل الدعاء من الأسباب العادية؟

نستطيع أن نقول: نعم إذا تصورنا القضية ليست أكثر من استعانة عاجز بقادر. .

إن الولد عندما يقول لأبيه: هات لى كذا مما يؤمل ويحب، فهو يستعمل السبب المتاح له، أى الوالد المحب، وإن كان بوسائله الخاصة لا يقدر.

والأنبياء عندما لجئوا إلى الله يدفعون به أذى الكافرين كان الدعاء سببهم العادى: **﴿كذّبت قبلهم قوم نوح فكذّبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدُجر* فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر* ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر* وفجرنا الأرض عيونًا فالتقى الماء على أمر قد قدر. .﴾**[1].

وليس كلامنا الآن فى هذا المنحى، وإنما نقصد ما روى فى الصحاح من أذكار ورقى يرددها المؤمنون فى أوقات معينة، أو فى أوجاع وأحوال يضيفون بها ويستعينون بالله لدفعها، ثبت فى الصحاح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا أخذ مضجعه ـ استعد للنوم ـ نفث فى يديه، وقرأ المعوذتين ومسح بهما جسده. .

وفى رواية كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه، ثم نفث فيهما، وقرأ فيهما: **﴿ قل هو الله أحد. .﴾** و **﴿ وقل أعوذ برب الفلق. . ﴾** و **﴿وقل أعوذ برب الناس. . ﴾** ثم مسح بهما ما استطاع من جسده، يبدأ بهما على رأسه، ووجهه، وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات.

قال رجال اللغة: النفث نفخ لطيف بلا ريق.

إن هذه السور الثلاث تحتوى على توحيد الله، وعلى تمام تنزيهه، ثم تدفع بالمرء فى أحضان العناية العليا متحصنًا من جميع الشرور المادية والمعنوية التى تزعجه.

---

(١) سورة القمر: ٩ ـ ١٢.

وهنـاك رقى كثيرة سنشير إلى بعضهـا يستشفـى بها المسلم مـن الأوجـاع التـى تنتابـه، واتصالها بعالم الغيبيات واضح، إذ لا يدرى العقل سر النفث ولا سر العدد الوارد.

وأجدنى هنا مسوقًـا إلى ذكر حقائق طبية مقررة تقفنا هى الآخرى على حـافة عالم الغيب متحيرين. إن الجراثيم التى تحمل العلل قد تهاجم بعض الأجسام بضراوة، على حين تفقد شراستها حين تتصل بأجسام أخرى، فما تمسها بأذى يذكر. . !!

وأحيانـا تشتد وطأة الجراثيم الهاجمة، ومـع ذلك تستقبلها مـن الجسم مناعة غـريبة. . وربما حمل الإنسان أسباب المرض دون أن يعتل به، أو يتألم منه. . ما سر ذلك؟

من الذى أفقد الجراثيـم قدرتها على الإصابة ابتداء وانتهاء؟ نحـن المؤمنين نقول: اللّه. ونسأل الشاكين: من غيره؟ إن عالم الحس بالنسبـة إلى عالم الغيب ضئيل محدود، والتحكم فى أسباب المرض والعافية أقله فى أيدينا، وأكثره بعيد عن متناولنا. .

والتداوى حق، وقد وصفـت السنة عقاقير وأغذية وأشربة شتـى للنجاة من الأمراض، ولكن يبقـى قبل ذلـك كله، وبعـد ذلك كله، هـذا السبب الخفـى الذى يجعـل الجراثيم تستأنس حينًـا، وتفترس حينًا آخر، الذى يجعـل العدوى تنتقل من الهبـاء، ولا تنتقل مع طول المخالطة والالتصاق. . !!

من أجـل ذلك يبقى دعـاء الرب الأعلى، واهـب الأسباب قدرتها على العمـل إذ شاء، وتاركها صفرًا لا أثر لها إذا شاء. . !!

وعلى ضوء هذا البيان نفهم المرويات التى نثبتها هنا واثقين من صدق نتائجها.

عن عثمان بن أبـى العاص أنه شكا إلى رسـول اللّه صلى اللّه عليه وسلـم وجعا يجده فى جسده فقال له رسـول الله صلى الله عليه وسلم: «ضع يدك على الـذى تألم من جسدك، وقل: باســم اللّه ـ ثـلاثًا ـ وقـل سبع مرات ـ أعـوذ بعزة اللّه، وقـدرته من شر مـا أجد، وأحاذر».

وعن أنس رضى اللّه عنه أنه قال لثابـت رحمه اللّه: ألا أرقيك برقية رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلـم؟ قال: بلى. قـال: «اللهم رب الناس، مذهب البأس أشـف أنت الشافى، لا شافى إلا أنت، شفاء لا يغادر سقمًا»!!

وهذه قصة طريفـة رواها البخارى ونحب أن نثبتها ونتدبرهـا. فعن أبى سعيد الخدرى

رضى اللّه عنـه ، قال : انطلق نفر من أصحـاب رسول اللّه صلى اللّه عليـه وسلم فى سفرة سافروها ، حتـى نزلوا على حى من أحياء العـرب فاستضافوهم فأبـوا أن يضيفوهم ، فلدغ سيد ذلك الحى ، فسعوا له بكل شىء لا ينفعه شىء . .

فقال بعضهم : لو أتيتم هؤلاء الرهط الذيـن نزلوا لعلهم أن يكون عندهم بعض شىء . فأتوهم ، فقالوا : يأيها الرهط ، إن سيدنا لدغ ، وسعينا له بكل شىء لا ينفعه شىء . . فهل عند أحد منكم شىء؟

قال بعضهم : إنى واللّـه لأرقى ، ولكن واللّه لقد استضفناكم فلم تضيفـونا فما أنا براق لكم حتى تجعلـوا لنا جعلا . فصالحوهم على قطيـع من الغنم ، فانطلق يتفـل عليه ويقرأ : «الحمد للّـه رب العالمين . . . » ــ يعنى ينفث بها على اللـديغ ـ فكـأنما نشط مـن عقال ، فانطلق يمشى وما به قلبة[1] ، فأوفوهم جعلهم الذى صالحوهم عليه .

وقال بعضهم : اقسمـوا ، فقال الذى رقى : لا تفعلـوا حتى نأتى النبـى صلى اللّه عليه وسلم ، فنذكـر له الذى كان . . فننظر الذى يـأمرنا . . فقدموا على النبـى ، صلى اللّه عليه وسلم ، فذكروا له فقال للصحابى الذى رقى المريض بأم الكتاب : «وما يدريك أنها رقية»؟ ثم قال : «قد أصبتم ، اقسموا ، واضربوا لى معكـم سهما» . وضحك النبى لما كان .

وفى رواية مشابهة قال النبى للراقى : «كل فلعمرى لمن أكـل برقية باطل لقد أكلت برقية حق» .

لقد استوقفتنى هـذه القصة من وجوه عديدة . . فإن فاتحة الكتـاب سورة عظيمة القدر بما حوت من تمجيد للّـه ودعاء ، وكان ظنى أنها تنفع قارئها وحده ، أمـا أن تنفع المقروء له فذاك ما أثبتته القصة هنا . .

والقصة تحكى أن هـؤلاء النفر من صحابـة الرسول نزلـوا بقوم لئام ، رفضوا أن يقبلـوهم ضيوفًا ، وهـذه خسة منكورة . . ترى هل فعلوا ذلـك بخلا آم فعلوا ذلك كرهًـا للإسلام ، والذين دخلوا فيه؟ إننى أرجح السبب الأخير . .

وكان من قدر اللّه أن أفعى أو عقربًا لـدغت كبير القوم وتركته لا قرار له ولا يجدى معه شىء . مما اضطر أهله أن يلجئوا للصحابة طالبين نجدة . . ! !

(١) القلبة بفتح القاف واللام : الألم والعلة .

والغريب أن الذى داوى المريض بالفاتحة ينفث بها على المصاب هو الذى توقف فى الانتفاع من المكافأة التى اشترطها، وشك فى جواز الأكل منها . . وهو تصرف يدل على أن الراقى كان يجمع بين صدق الإيمان وشدة الورع . .

وهنا موطن العبرة . . فليس كل قارئ يشفى، ولا قراءة تداوى، ولكن للّه عبادا إذا أرادوا، وإذا استنزلوا الفضل نزل . .

وقد فرح الرسول صلى اللّه عليه وسلم بالقصة كلها، وأحب إرضاء الراقى، فشاركهم فى الطعام من المكافأة المبذولة . . ! !

ولم لا يفرح بأثر الوحى النازل عليه إذا صحبه اليقين الحار والعمل البار؟ إن الجانب الغيبى فى هذه المرويات ما يمكن إنكاره، وكذلك ما يمكن تعميمه بين أهل السبق والتقصير، أو بين من لهم باللّه علاقة وثيقة، ومن يمتون إليه بأوهى الصلات . .

وأغلب الصالحين يستمد صحته الجسدية، ومقاومته للأدواء والأوجاع من هذا النبع الجياش فى فؤاده يمده بعفو اللّه، وعافيته . .

ونعود إلى إمام الصالحين محمد بن عبداللّه لننقل عنه أنه كان يغالب المتاعب العارضة باللجوء إلى اللّه والاستعاذة به . . قد تقول: إننا عرفنا عنه سلامة البدن وقوته، وأنه أوتى من ذلك ما لم يؤت غيره، فمن أين تجيئه هذه الأسقام، الملجئة إلى التعوذ، والضراعة؟

ونقول: لا ريب أن خاتم المرسلين أوتى بسطة فى العلم والجسم تعينه على أضخم رسالة حملها بشر . . لكن سهر الليل فى التهجد والتلاوة وسبح النهار فى العبادة والكدح، والجهاد المتصل، وحمل آلام الخلق، واطراد هذه المعاناة ربع قرن، وهى تربو، ولا تخف . . مع تخفف مستغرب من الطعام والشراب، هذا كله أعيا الجسد الجلد، وأرهقه .

لقد رمقت عددًا من كبار القادة فوجدتهم يتناولون مقادير كبيرة من المنبهات والمقويات، ويستهلكون مقادير أخرى من المآكل والمشارب، على حين رأيت فى سيرة محمد أنه يحتاج إلى الطعام، فيؤتى له بخل ـ إذ لا يوجد غيره ـ فيغمس فيه اللقيمات المتاحة، وهو راض يقول: «نعم الإدام الخل . . » أو لعله لا يجد شيئًا فينوى الصيام إلى الغروب .

أى جسد يتحمل مع هذا الإقلال أعباء الغزوات التى قصمت الوثنية، وأعباء التربية التى أطلعت من الجزيرة القاحلة رجالا أضاءوا العالمين . .

إن الإمدادات الـروحية الهابطة مـن السماء هى من وراء هـذه الأعصاب ـ الحديـدية . . ذكره لله ، ودعاؤه لله ، وتفويضه لله . .

جاء فى الصحيح أنه كـان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذات وينفـث ، قيل للزهرى ـ أحد رواة الحديث ـ كيف ينفث؟ قال ينفث على يديه ، ثم يمسح بهما وجهه .

لقد ظل كذلك طوال عمره ، ففـى رواية أخرى أن النبى كان ينفث على نفسه فى المرض الذى تـوفى فيه بالمعوذات . . قـالت عائشة : فلما ثقـل كنت أنفث عليه بهن ، وأمسـح بيد نفسه لبركتها . . «تعنى ـ رضى الله عنها ـ أنها تمسح جسده بيده هو التماس بركتها»!

ذاك طبيبه الخاص فى دنيا الناس . . !! إذا كان للرؤساء أطباء خاصون بهم . . !!

وكذلك كان يغالب الأسقام ، حتى استراح مع الرفيق الأعلى . .

إن تعبيرنا هنا بالجانب الغيبى قد يصح بـالنسبة إلى جمهرة الناس ، فإن ظلال الأشياء لا تغـادر بصـائرنا ، ورغـائبنـا الخاصـة قلما تنفك عنـا ، مـع مـا يخالـط ذلك كلـه مـن يقين وإخلاص . . لكـن الأمر بالنسبـة إلى الأنبياء غير ما نتصور، فهـم فى شهود غالـب يجعل إحساسهم برب الأشياء أسبق من حسهم بالأشياء نفسها .

ونبى الأنبياء عليه الصلاة والسلام كانـت روحانيته عارمة ، والإشراق الإلهى على قلبه لا يلحقه أفـول . . وكان جهـده أن يرفـع مستوى من حـوله ، وأن يغلـب ماديتهـم بصفائه ، وسنائه . .

وذلك يجعلنـا نلقى نظـرة عجلى على أركان الإسلام لنـرى كيف كـانت معـارج ارتقاء ، ومصادر تذكر دائم لله ، ولنرى كيف انفرد هو بأدائها على نحو لا يدانى ولا يرام . . . !!!

الأركان العامة

كان النبى صلى اللّه عليه وسلم إذا دخل الصلاة قال : «اللّه أكبر كبيرًا والحمد للّه كثيرًا وسبحان اللّه بكرة وأصيلا ، وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفًا مسلمًا وما أنا من المشركين . إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى للّه رب العالمين . لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين» .

«اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت ، أنت ربى وأنا عبدك . ظلمت نفسى ، واعترفت بذنبى فاغفر لى ذنوبى جميعًا لا يغفر الذنوب إلا أنت . واهدنى لأحسن الأخلاق لا يهدى لأحسنها إلا أنت ، واصرف عنى سيئها لا يصرف سيئها إلا أنت» .

«لبيك وسعديك ، والخير كله فى يديك ، والشر ليس إليك ، أنا بك وإليك ، تباركت وتعاليت ، أستغفرك وأتوب إليك . . !!» .

ومعنى : الشر ليس إليك ، أنه لا يبدأ به عبدًا ، وإنما يجلبه العباد على أنفسهم بسوء عملهم : ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير﴾[١] .

وربما قال عليه الصلاة والسلام فى مفتتح صلاته : «اللهم باعد بينى وبين خطاياى كما باعدت بين المشرق والمغرب . اللهم نقنى من خطاياى كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس ، اللهم اغسلنى من خطاياى بالماء والثلج والبرد!!» .

وربما قال : «سبحانك اللهم وبحمدك ، وتبارك اسمك ، وتعالى جدك ، ولا إله غيرك . . »!!

وربما قال فى ركوعه إذا ركع : «اللهم لك ركعت ، وبك آمنت ، ولك أسلمت ، خشع لك سمعى ، وبصرى ، ومخى ، وعظمى ، وعصبى» .

---

(١) سورة الشورى : ٣٠.

وربما قال بعد الرفع من الركوع : «ربنا لك الحمد، حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، ملء السموات وملء الأرض، وملء ما بينهما، وملء ما شئت من شيء بعد . . أهل الثناء والمجد، أحق ما قال العبد ـ وكلنا لك عبد ـ لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد» أى لا ينفع أحدًا ما قسمت له من دنيا عريضة، إنما ينفعه ما يلقاك به من تقوى وأدب . . !!

وربما قال فى سجوده : «سبحان ذى الجبروت والملكوت والكبرياء، والعظمة» أو قال : «اللهم أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك، سبحانك! لا أحصى ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك» . !!

إننى عندما أتلو هذه العبارات المضيئة أشعر كأن الأنبياء كلهم، والملأ الأعلى معهم، يقفون وراء محمد صفوفًا صفوفًا، وهو يدعو بها أفاض الله على قلبه ولسانه، وهم يؤمنون، ويؤكدون . . !!

وقد أسأل : هل هناك عنصر من عناصر العبودية، أو معلم من معالم الرغبة والرهبة فات محمدًا، وهو يناجى ربه؟

هل أدى أحد من الملائكة المقربين، أو الرسل المكرمين تحية لرب العالمين أزكى من هذه التحية، أو مدحًا أسنى من هذا المدح، أو اعتذارًا على تقصير أرق من هذا الاعتذار . .

والتقصير هنا يرجع إلى واحد من أمرين : أن طاقة البشر محدودة والواجب كبير، أو أن عظمة الرب فوق ما يعى الواعون فالألفاظ تفنى، وحق الله أكبر مما يقولون . . !!

على أنه فى ميدان التعبد لله، بحسن المعرفة وإسداء الشكر، نرى إنسانًا فذا، سبق سبقًا بعيدًا، تحبو البشرية وراءه، وهى مبهورة الأنفاس، وفى مسامعها أصداء تسبيح، وتحميد تتجدد، ولا تتبدد.

من هذا العابد المستغرق الأواه المنيب؟ إنه محمد بن عبدالله.

ونهبط من هذا الأفق لنسمع فحيح بعض الأفاكين يقول : ليس محمد نبيا! ومن قبل ذلك استمعنا إلى سخفهم وهم يقولون : لله ولد، وهو معه إله . . ويحكم!! إنه لا إله إلا الله، وإن محمدًا رسول الله . .

إن الصلاة هى الركن الثانى فى الإسلام، ولا مجال هنا لشرح أقوالها وأفعالها، وما سقناه من أدعية وأذكار ليس من قبيل الواجب، فالصلاة تتم بقراءات وأذكار دون ذلك، وإنما أردنا أن نشير إلى فن الذكر عند كبير العابدين.

والصلاة هى العبادة الأولى فى كل دين، وقد كانت الشغل الشاغل للنبى عليه الصلاة والسلام، وقد جعلها شارة التقوى، ومظهر الخضوع والتودد، وشعار الولاء المطلق للّه رب العالمين.

وتوجد معابد لشتى الأديان، بيد أن الإسلام جعل العبادة ارتباطًا بإله واحد، واستمدادًا من إله واحد، واحتكامًا إلى إله واحد، وعودة - فى النهاية - إلى هذا الإله الواحد..!!

والنبى العربى محمد أفضل من عرف الخلق بهذا الإله الواحد، وحببهم فيه، وأشعرهم بأن ربهم أرحم بهم من الوالد والوالدة، وأعطف عليهم من كل صديق.

وقد بينا فى مواضع أخرى أن منهاج الإسلام فى التربية يجمع بين صفات الجلال وصفات الجمال، وما يستغنى البشر عن هذا الجمع، فهناك فراعنة تغريهم السلطة بالبغى، وهناك فقراء يعوزهم الدعم، أو مخطئون يلتمسون الهدى والمتاب.

فى هؤلاء وأولئك تقرأ قوله تعالى: **﴿إن بطش ربك لشديد* إنه هو يبدئ ويعيد* وهو الغفور الودود* ذو العرش المجيد﴾**[1].

وما يحبب فى اللّه، وما يؤسس مشاعر الحب فى الأفئدة فيض غامر فى رسالة محمد عليه الصلاة والسلام، لا نعرف له نظيرًا فى أى تراث.

إذا اعترضتك مشكلة، ولم تدر كيف تتصرف بإزائها، فالجأ إلى ربك تستفتيه، وسله أن يوجهك إلى الأفضل، إنه منك قريب فلماذا تتركه؟؟

عن جابر بن عبداللّه كان رسول اللّه يعلمنا الاستخارة فى الأمور كلها كما يعلمنا السورة من القرآن، يقول: «إذا همَّ أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ثم ليقل: اللهم إنى أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب.

اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لى فى دينى ومعاشى، وعاقبة أمرى - أو قال: عاجل أمرى وآجله - فاقدره لى، ويسره لى، ثم بارك لى فيه.

وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى - أو قال: عاجل أمرى وآجله - فاصرفه عنى واصرفنى عنه، واقدر لى الخير حيث كان، ثم أرضنى به. ويسمى حاجته».

---

(١) سورة البروج: ١٢-١٥.

استغربت من بعض أعداء محمد، وهم يقولون متهكمين: إن رب محمد جبار متكبر. . قلت: ليكن! هـل يكسر جبابرة الأرض إلا جبار السماء، وهل يمحـو كبرياءهم إلا الكبر المتعال؟؟

إن إنقاذ الدنيا من أولئك المدمرين رحمة مهداة. .

ومع ذلك فإن مؤدب الطغاة يقول للمنكسرين: أنا معكم جابر، ويقول للمستهدين: أنا لكم مرشد، ويقول لطلاب خيره: اسألوا اللّه من فضله إن اللّه كان بكل شىء عليما.

إذا كانت لك حـاجة فتعال بها إلى ربك، إنه لن يتعـب فى قضائها: **﴿إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون﴾**[1].

عن عبداللّـه بن أبى أوفى قال: قـال رسول اللّه صلى اللّه عليـه وسلم: «من كانـت له حاجـة إلى اللّه تعـالى، أو إلى أحد مـن بنى آدم فليتوضـأ، وليحسن الـوضوء، ثـم ليصل ركعتين، ثم ليثن على اللّه عـز وجل، وليصل على النبى صلى اللّه عليه وسلـم، ثم ليقل: لا إله إلا اللّه الحليم الكـريم، سبحان اللّه رب العرش العظيم، الحمـد للّه رب العالمين. أسألك موجبات رحمتـك، وعزائم مغفرتك والعصمة من كل ذنب، والغنيمـة من كل بر، والسلامة من كل إثم، لا تدع لى ذنبًا إلا غفرته، ولا هما إلا فرجته، ولا حاجة هى لك رضا إلا قضيتها يا أرحم الراحمين».

وتنقضى الدنيا بأفراحها وأحزانها، وتنتهى الأعمار على طولها وقصرها، ويعود الناس إلى ربهم بعـد ما أمضـوا فترة الامتحان على ظهـر الأرض **﴿كما بدأكـم تعودون* فريقـا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة﴾**[2].

أصبحـت الدنيـا ذكريـات. . . وها هـم أولاء بنـو آدم يضعون أقـدامهم على عتبـات الآخرة. .

ويموت مسلم فى المدينة المنورة، ويقف النبى الكـريم مصليًا على جنازته، ويقدمه إلى ربه قـائلا: «اللهم اغفـر له وارحمه، وعافـه، واعف عنـه، وأكرم نزلـه، ووسع مـدخله، واغسله بالماء والثلج والبرد، ونقـه من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الـدنس، وأبدله دارًا خيرًا من داره، وأهلا خيرًا مـن أهله، وزوجًا خيرًا من زوجه، وأدخله الجنـة وأعذه من عذاب القبر، ومن عذاب النار».

---

(١) سورة يس: ٨٢.　　(٢) سورة الأعراف: ٢٩، ٣٠.

قال راوى الحديث : لقد تمنيت أن أكون ذلك الميت الذى ظفر بهذه الدعوات المباركات . .

واختار الشافعى من أدعية الرسول الكريم هذا الدعاء : «اللهم هذا عبدك ، وابن عبدك خرج من روح الدنيا وسعتها ومحبوبيها وأحبائه فيها إلى ظلمة القبر، وما هو لاقيه» .

«كان يشهد أن لا إله إلا أنت ، وأن محمدًا عبدك ورسولك وأنت أعلم به»

«اللهم إنه نزل بك وأنت خير منزول به ، وأصبح فقيرًا إلى رحمتك وأنت غنى عن عذابه ، وقد جئناك راغبين إليك ، شفعاء له» .

«اللهم إن كان محسنًا فزد فى إحسانه ، وإن كان مسيئًا فتجاوز عنه . . وآته برحمتك رضاك ، وقه فتنة القبر وعذابه ، وأفسح له فى قبره ، وجاف الأرض عن جنبيه ، ولقه برحمتك الأمن من عذابك ، حتى تبعثه إلى جنتك يا أرحم الراحمين» .

الصلاة على المؤمنين كتاب موقوت ، ترتبط بحركة الشمس الظاهرة ، قبل الشروق بنحو ساعة ونصف ثم بعدما تتوسط كبد السماء ، ثم بعد ما تميل وتتضاعف الظلال ، ثم بعدما تغرب ، ثم بعد ما يختفى الشفق الأحمر . .

وكما يرعى المسلمون الشمس لضبط عبادتهم اليومية يرعون القمر لضبط فريضتى الصيام والحج . . إن الزمن فى حياتهم مطية إلى الآخرة ، وقد لفت النبى صلى اللّه عليه وسلم أنظارهم إلى الشمس فى سمائها الصاحية ، وإلى القمر وهو بدر تم ، وأشعرهم أنهم سوف يرون ربهم فى الدار الآخرة بهذا الوضوح .

أفما ينبغى الاستعداد لهذا اللقاء بأعمال تنضر الوجوه . وتجمل العقبى؟

إن أهم الأعمال أن يذكر هذا الرب فلا ينسى ، وأن يشكر فلا يكفر، وألا تكون مخلوقاته حجابًا دونه ، أو عقبات أمام ما يجب له . .

وقد كان محمد صلى اللّه عليه وسلم ربانى الشعور والسلوك ، يستغل كل شىء لتحية اللّه ، وإعلان حبه ، وتقرير وحدانيته ، عن ابن عمر كان رسول اللّه إذا رأى الهلال قال : «اللّه أكبر، اللهم أهله علينا باليمن والإيمان والسلامة والإسلام ، والتوفيق لما تحب وترضى ، ربنا وربك اللّه» .

وفى رواية أن نبى اللّه كان إذا رأى الهلال قال : «هلال خير ورشد ، هلال خير ورشد ،

هلال خير ورشد . آمنت بالله الذى خلقك ـ ثلاثًا ـ ثم يقول : الحمدلله الذى ذهب بشهر كذا ، وجاء بشهر كذا» .

هذا قلب عابد يرصد الزمن الدوار، ليحمد مقلب الليل والنهار، ويتفاءل بنعمة قادمة ، ويشيع نعمة ذاهبة ، إن الزمن عنده هبة مبذولة فى طاعة اللّه ، وهو ما يضيع من هذا الزمن السائر لحظة فى لهو أو غفلة ، إنه فى صلاة ، وصيام ، وجهاد ، وسعى دءوب لقيادة الخلق إلى الله .

والناس إذا ذكر الصيام يذكرون رمضان ، لأنه شهر الفريضة ، ولكن النبى عليه الصلاة والسلام كان يصوم حتى يقال : ما يفطر، وقلنا : إنه كان فى رمضان يواصل الصيام أحيانًا فما يفطر عند الغروب ، وهذا من خصائصه التى تفرد بها .

وكلماته عندما يفطر تدل على نوع المعاناة التى كان يحسها فى صيف يجفف لهيبه الحلوق ، ويرهق الأبدان . . فعن ابن عمر كان النبى صلى اللّه عليه وسلم إذا أفطر قال : «ذهب الظمأ وابتلت العروق وثبت الأجر إن شاء الله» وقد يقول : «اللهم لك صمت ، وعلى رزقك أفطرت» .

وعن عبدالله بن عمرو قال : سمعت رسول الله يقول : «إن للصائم عند فطره لدعوة ما ترد» قال ابن مليكة : سمعت عبدالله بن عمرو ــ راوى هذا الحديث ـ إذا أفطر يقول : «اللهم إنى أسألك برحمتك التى وسعت كل شىء أن تغفر لى» .

سمعت متحدثًا كأنه يعتذر عن مناسك الحج ، يقول : إن الله يختبرنا بما نعقل حكمته ، وبما لا نعقل حكمته ، لتظهر طاعتنا ، فى هذا وذاك ! !

قلت : تعنى أن المناسك التى كلفنا بها فى الركن الخامس غير معقولة؟ فسكت تهيبًا ، ثم قال : ذاك ما أريد ، وأنا أطيع الله جل وعز فى كل ما يكلفنى به . .

قلت : إن هناك أمورًا كثيرة لا صلة لها بقضايا العقل ، لا سلبًا ولا إيجابًا ووصفها بأنها «لا معقولة» غير صحيح ! فنحن نكتب لغتنا العربية من اليمين إلى اليسار، وأسرة الدول الغربية تكتب لغاتها من اليسار إلى اليمين ، هذه أوضاع لا توصف بأنها مع العقل أو ضده ، هذه شئون تواضع الناس عليها ، ومن حقهم ذلك دون ملام على ما ساروا فيه ، واختاروه لأنفسهم . . ! !

عند استعراض الجيوش يكلف الجند بأداء التحية على نحو معين ، فيرفعون السلاح

بحركـة خاطفة، ثـم يصوبونه إلى إحـدى الجهات، ثم يـردونه إلى أخرى، ثـم يستقر على مناكبهم، ثم يتجهون صوب منصة القائد برءوسهـم. . إلخ ـ ما هذا؟ أمور تواضع الناس عليها. . يمكن أن نرفض منها ما ينبو عـن الذوق اللطيف، ويمكن أن نستملح ما يوائم طباعنا. . ! ! ولا صلة لهذا كله بقضايا المنطق العقلى. .

إن الإسلام يرفض ما يخالف العقل والفطرة، ولكنه لا يعترض المسالك البعيدة عن هذا المجال إلا إذا خدمت باطلا! !

قال: تقصد أن أفعال الحج من هذا القبيل السائغ؟ قلت: نعم.

قال: لماذا يكون الطـواف سبعة أشواط مثلا؟ قلـت: السؤال الدورى يسقط تلقـائيا، لأنه لو كان أقل أو أكثر لتكرر السؤال، لماذا كان اسمـك فلانًا، ولم يكن فلانًا، إنه سؤال دائر لا نلتزم له بإجابة، ومع ذلك فإن أفعال الحج فى جملتها معقولة، ولها حكم بينة. .

من حق الإنسـانية أن تعتز بذكـرياتها القديمة، وأن تحيط هـذه الذكريات بـأسوار من المهابـة والتقديس إذا كـانت تتصـل بعقائدها وقيمهـا. . ومناسك الحج جـزء من تـاريخ جليل، ومفاتح لخزائن من الـروحانية الدافقة والعاطفة الجياشـة، ومن ثم كان الارتباط بها ركنًا فى الدين: ﴿ذلك ومن يعظّم شعائر اللّه فإنها من تقوى القلوب﴾[1].

ويحتاج هذا الكلام إلى شرح معقول! لماذا تنطلق قـوافل البر والبحر والجو صوب البيت العتيق، مقبلـة من القارات الخمس، وفى الأفئـدة شوق وفى العيون بريـق؟ الحق أن البيت المقصود جدير بهذا الإعزاز كله، فقد بناه أبو الأنبياء إبراهيم ليكون حصنًا للتوحيد وملتقى للركع السجـود بعدما اشتبك عليه السـلام مع الوثنية الأولى فى صراع حيـاة أو موت، وقد انتصر إبراهيـم فى معركـة الوحدانيـة، ورفع هـو وابنه إسماعيـل قواعد هـذا البيت تـوكيدًا للنصر، ومراغمة للكفر: ﴿إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركًا وهدى للعالمين* فيه آيات بينات مقـام إبراهيم ومن دخله كان آمنًـا ولله على الناس حج البيت مـن استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن اللّه غنى عن العالمين﴾[2].

إن المسجد الأول فى العالم جديـر بأن تشد إليه الرحال، وأن تجىء إليـه الوفود بين الحين والحين لتؤدى له التحية. . . وكـل مسجد يبنى فى المشارق والمغارب بعده ينبغـى أن يرتبط

---

(١) سورة الحج: ٣٢.

(٢) سورة آل عمران: ٩٦ ـ ٩٧.

به وأن يتجـه إليه ، ولـذلك كان هـذا المسجد المحترم قبلـة للمؤمنين كـافة : ﴿ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره . . . ﴾[1] .

وشىء آخر فى تاريخ الإنسانية يشدنا نحن المسلمين خاصة إلى هذه الكعبة المشرفة ، أن أمتنا الكبيرة كانت أملا عنـدما بدأ هذا البناء ، وأن رسالتنا الخاتمة كانـت دعوة حارة عندما برزت هذه القـواعد ، كان إبراهيـم وإسماعيل يقولان : ﴿ . . . ربنا واجعلنـا مسلمَين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم* ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم . . . ﴾[2] .

إننا نحن الذرية المسلمة المعنية فى هذا الـدعاء ، وإن رسولنا الخاتم محمدًا عليه الصلاة والسلام هـو والدنـا الروحـى والثقافى وصـاحب أطهـر أنفاس حنـت على العالم ، وألهمتـه رشـده . . أفلا نـرتبط بعـدئذ بهذا البيت ، ونـزوره مـا وجدنـا إلى ذلك سبيـلا؟ ما أعظـم الذكـريات التى تحف بـه! وما أوفى الوفـود التى طوت الأبعـاد لرؤيته ، والتـزود من خيره ، وبره . . ! !

ونحن نحيـى البيت العتيـق بالطـواف حولـه والصلاة إليـه ، نجعل الحجـر الأسود إلى يسارنا ثم نلف سبع مرات ، أو سبعة أشواط . وماذا نقول خلال ذلك؟ نقول : سبحان اللّه والحمد للّه ، ولا إله إلا اللّـه واللّه أكبر وندعو بما نشاء من حـوائج الدنيا والآخرة : ﴿ليس عليكم جنـاح أن تبتغوا فضلا مـن ربكم . . ﴾[3] . والبشر فقراء إلى اللّـه ، وهو صـاحب الخزائن التى لا تنفد . .

كلهـم سـائل وأنت مجيـب تـلك نعمـاك ما لها من نفـاد!

وبعض الحمقى من المبشرين يظن للمسلمين علاقات مـادية بالكعبة وبالحجر الأسود خاصـة ، وهذا ظـن ما يبـوء إلا بالسخريـة والضحك ، فـإن التوحيـد الذى يعمـر قلوب المسلمين طراز من اليقين الحر لا نظير لـه فى الدنيا ، والهتاف الذى يسود مـواكب الحجيج منذ تحركها النبيل هو: «لبيك اللهم لبيـك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك . . » . وهو هتاف يزداد هديره كلما علوا ربوة ، أو هبطوا واديًا ، أو لاقوا جمعًا ، وكلما أظلتهم هدأة الليل ، أو سكينة السحر . . ويشعر الملبى أن الكون كله يتجاوب معـه مصداق ما ورد فى الحديـث : «إذا لبى الحاج لبى مـا عن يمينه ويسـاره من

---

(١) سورة البقرة : ١٥٠ .
(٢) سورة البقرة : ١٢٨ ـ ١٢٩ .
(٣) سورة البقرة : ١٩٨ .

شجر، وحجر، ومدر حتى منقطع الأرض من ها هنا، وها هنا، وها هنا» . . ولا عجب أن يتجانس الكون المسبح بحمد اللّه مع إنسان انخلع عن نفسه ، وانطلق فى سفر صالح يبغى مرضاة اللّه . وكان النبى صلى اللّه عليه وسلم لا يريد سفرًا إلا قال حين ينهض من جلوسه : «اللهم زودنى التقوى واغفر لى ذنبى ، ووجهنى للخير أينما توجهت . اللهم أنت الصاحب فى السفر، والخليفة فى الأهل والمال والولد» .

إن الحاج إنسان متبتل إلى اللّه ، متلهف على رضاه ، متطلع إلى مثوبته متخوف من عقوبته ، يتحرك كل شىء فى بدنه بمشاعر الشوق والرغبة والحب ولا أعرف تجمعًا أهلا لرحمة اللّه ومغفرته كهذا التجمع الكريم .

والسعى بين الصفا والمروة يقع عادة بعد الطواف ، وشعائر السعى تجديد وتخليد لمشاعر التوكل على اللّه كما استقرت فى قلب «هاجر» أم إسماعيل ، وكما استقرت فى قلب رجلها إبراهيم الخليل .

إن التوكل شعور نفيس غريب ، وهو أغلى من أن يخامر أى قلب ، إنه ما يستطيعه إلا امرؤ وثيق العلاقة باللّه حساس بالاستناد إليه والاستمداد منه . وعندما ينقطع عون البشر، وتتلاشى الأسباب المرجوة وتغزو الوحشة أقطار النفس فهلا يردها إلا هذا الأمل الباقى فى جنب اللّه ، عندئذ ينهض التوكل برد الوساوس وتسكين الهواجس . إننى بعين الخيال أتبع هاجر وهى ترمق وليدها الظامئ ، ثم تجرى بخطوات والهة هنا وهناك ترقب الغوث وتنتظر النجدة . . إن ظنها باللّه حسن ، وقد قالت لإبراهيم عندما تركها فى هذا الوادى المجدب الصامت : آللّه أمرك بهذا؟ قال : نعم . . ! قالت فى رسوخ : إذن لا يضيعنا . . !! وها هى ذى تتعرض للمحنة ، وتنتظر تدخل السماء . . وتدخلت السماء ، وتفجرت زمزم ، وغنى الوادى بعد وحشة وصار الرضيع المحرج أمة كبيرة العدد عظيمة الغناء ، ومن نسله صاحب الرسالة العظمى ، ومن شعائر اللّه هذا التحرك بين الصفا والمروة تقليدًا لأم إسماعيل ، وهى ترمق الغيب بأمل لا يخيب . .

ما أحوج أصحاب المثل إلى عاطفة التوكل ، إنها وحدها تكثرهم من قلة ، وتعزهم من ذلة ، وتجعل من تعلقهم باللّه حقيقة محترمة ، ولعل ذلك بعض ما تعنيه الآية : **﴿إن الصفا والمروة من شعائر اللّه فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ومن تطوع خيرًا فإن اللّه شاكر عليم﴾**(١) .

---

(١) سورة البقرة : ١٥٨.

قال المؤرخون : إن إبراهيم لما ترك هاجر وابنه يواجهان المصير المجهول فى هذه البقعة المنقطعة عرض له الشيطان وهو ينقل قدميه فى منى ـ بعدما أنفذ أمر الله ـ يقول له : أيترك أحد أسرته تموت جوعًا وعطشًا على هذا النحو؟ عد فاستنقذ أهلك!! ولكن إبراهيم حذف الشيطان بالحجارة ومضى فى طريقه يناجى ربه : **﴿ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون﴾**(1).

واستجاب الله للدعاء الخالص، وسقط كيد الشيطان فلم ينل شيئًا من قلب الإنسان المؤمن الواثق، وكانت سنة رمى الجمرات ليعلم من يجهل أن وعد الله حق، وأن وسوسة الشيطان هراء، وما تعمل هذه الوسوسة عملها إلا مع أصحاب القلوب الفارغة : **﴿إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون* إنما سلطانه على الذين يتولَّونه والذين هم به مشركون﴾**(2).

ومما يلفت النظر أن القرآن الكريم لما أراد أن يذكر رمى الجمرات بمنى لم يستعمل هذا العنوان المألوف، بل عبر عنه بذكر الله فى أيام معدودات قال تعالى : **﴿واذكروا الله فى أيام معدودات فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه لمن اتقى﴾**(3). . كأن المقصود من هذا الموضوع هو الذكر الجهير العالى لرب العالمين، وما رمى الجمرات إلا رمز. .

والحق أن الحج كله هو هذا الهدير الموصول بذكر الله من أمواج بشرية متصلة، لا شغل لها إلا الجؤار بالتلبية والهتاف بالتسبيح . ومن المؤسف أن رمى الجمرات تحول إلى عمل معنت تزهق فى زحامه أرواح ولا يستطيعه إلا أصحاب الجلادة والمغامرة! لماذا؟ لأن الرأى الفقهى السائد أن الرمى لا يصح إلا بين زوال الشمس وغروبها . . فكانت الجماهير المتدفقة فى ذلك الوقت العصيب تواجه المهالك، وقد رفضت شخصيا هذا الرأى لأنى لم أعرف له سنادًا من كتاب أو سنة، ورميت فى أوقات خفيفة الحر والزحام!!

ومما يسر الآن أن الحكومة السعودية جعلت للرمى ميدانًا أعلى وآخر تحته وضبطت طريقى الذهاب والعودة، وفسحت المجال للقول بأن الرمى يصح خلال الأيام المعهودة

---

(1) سورة إبراهيم : ٣٧. (2) سورة النحل : ٩٩ ـ ١٠٠.
(3) سورة البقرة: ٢٠٣.

ليلا ونهارًا . . فاستنقذت بذلك أرواحًا وأعانت على طاعة . . إن هناك مسلمين يظنون الحج جملة مشكلات معقدة، وهؤلاء عسروا اليسير واختلقوا بدعًا لا أصل لها . . حتى ظن البعض أن لكل شوط فى الطواف دعاء خاصا، وأن لكل شوط فى المسعى دعاء خاصا، وألفت كتب لهذه الأدعية ما أنزل اللّه بها من سلطان .

وهناك أشخاص معلولو الفكر يظنون السعى على الأرض أولى من السعى فى الدور الأعلى الذى أقامته الحكومة تخفيفًا لأهوال الزحام، وكذلك فى رمى الجمرات يظنون أن الرمى على الأرض أهم من الرمى فى الدور الأعلى ! ! وما يدرى هؤلاء أن النبى صلى اللّه عليه وسلم طاف حول البيت فوق ناقته يشير إلى الحجر الأسود بعصاه من بعيد . . إن الحج عبادة رقيقة محبوبة أساسها الوقوف بعرفة والطواف حول البيت وبعض شعائر أخرى يمكن استيعابها بيسر دون قلق أو حرج . . والدين كله يقوم على صدق الإخلاص ونضج الأخلاق وحسن العلاقة باللّه وبعباده، والقرآن الكريم يقول فى الحج : ﴿**الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج وما تفعلوا من خير يعلمه اللّه وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولى الألباب**﴾[1] . وهذه الرحلة بين الأماكن المقدسة تصقل الطبع وتزكى القلب، وتنمى مشاعر الحب للّه ولرسوله وجماعة المسلمين، فلا عجب إذا قال رسول الله صلى اللّه عليه وسلم فى أثر هذه الفريضة الجليلة : «من حج هذا البيت فلم يرفث، ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه» .

ولقد ثبت أن مكة مركز العمران فى هذا العالم واستطاع الدكتور «حسين كمال الدين» أستاذ الهندسة بجامعة الرياض أن يثبت بحسابات رياضية عالية أن مكة تتوسط القارات المأهولة، وأن وضعها الذى قرره العلم الحديث تفسير حقيقى لقوله تعالى : ﴿**وكذلك أوحينا إليك قرآنًا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه . .**﴾[2] .

فحول الكعبة المشرفة دوائر متتابعة الرحابة من الركع السجود، يتلوها غيرها من المسلمين الذين اتخذوا المسجد الحرام قبلتهم، وعلى امتداد خطوط الطول والعرض تسمع كلمات الأذان وتنحنى الأصلاب والجباة ركوعًا وسجودًا لأهل الحمد والمجد، رب المشارق والمغارب، رب العالمين .

---

(١) سورة البقرة : ١٩٧ .
(٢) سورة الشورى : ٧ .

فى موسم الحج تلتقى مكة بالوفود المقبلة من كل فج عميق، تلتقى بأفراد الإنسانية الموحدة المهتدية المحبة لله وللمسجد الأول أبى المساجد فى القارات كلها تتصافح الوجوه وتتعارف النفوس على تلبية النداء الصادر بحج البيت، النداء الذى صدر من قديم، وزاده الإسلام قوة وحدة.

﴿وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق* ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات. .﴾[1].

ووفود الله القادمة إلى مكة تصنع مجتمعًا شغله الشاغل ذكر الله، والهتاف باسمه المبارك.

فى الأحياء التجارية يكون تبادل السلع والأثمان هو الحركة السائدة. . فى الدواوين الحكومية يكون تنقيل الأوراق من هنا وهناك مظهر الحياة البارز. .

لكن الحجاج والعمار يقيمون سوقًا للصالحات لها جؤار هائل بالتلبية والتكبير كأن الأرض تحولت بهم إلى أفق يعج بالملائكة المتعبدين.

قال النووى يرسم عمل الحجيج: «ويستحب الإكثار من التلبية يستحب ذلك فى كل حال، قائمًا وقاعدًا، ماشيًا وراكبًا، مضجعًا ونازلا وسائرًا، محدثًا وجنبًا وحائضًا. وعند تجدد الأحوال وتغايرها زمانًا ومكانًا، كإقبال الليل والنهار، وعند الأسحار، واجتماع الرفاق. وعند القيام والقعود والصعود والهبوط والركوب والنزول، وفى أدبار الصلوات، وفى جميع المساجد».

ثم قال النووى: «وإذا رأى شيئًا أعجبه قال: لبيك، إن العيش عيش الآخرة. . اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم».

ولبواعث هذا الإعجاب قصة، فقد روى الشافعى عن مجاهد قال: كان النبى عليه الصلاة والسلام يظهر التلبية: لبيك اللهم لبيك. . إلى آخرها حتى إذا كان ذات يوم والناس يدفعون عنه، فكأنه أعجبه ما هو فيه فقال: «لبيك إن العيش عيش الآخرة»!!

قال ابن جريج: حسبت أن ذلك يوم عرفة!!

---

(١) سورة الحج: ٢٧ ـ ٢٨.

من حق عشرات الألوف من الحجاج أن يزدحموا حـول نبيهم ، وهو يجأر بذكر اللّه ، إنه صانع هذه السيرة وقائدها .

لكن محمدًا الضخم لا يزدهيه أن تزدحم حـوله الأتباع ، إن فؤاده المعلق باللّه ، المرتقب للقائه ، جعله يذكر الآخرة ، ويؤمل فى غدها القريب . .

ولقد سمـع ، وهو على الصفا يقول : «اللّـه أكبر اللّه أكبر. اللّه أكبر وللّه الحمـد . اللّه أكبر على ما هدانا . والحمد للّه على ما أولانا» .

«لا إله إلا اللّه وحـده لا شريك له ، له الملـك وله الحمد . يحيى ويميـت ، بيده الخير، وهو على كل شىء قدير» .

«لا إله إلا اللّه ، أنجز وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده» .

«لا إله إلا اللّه ، ولا نعبد إلا إياه مخلصين له الدين ، ولو كره الكافرون» .

اللهم إنك قلت : ﴿ادعونى أستجب لكم﴾[1] . وإنك لا تخلف الميعاد وإنـى أسألك كما هديتنى للإسلام ألاَّ تنزعه منى حتى تتوفانى وأنا مسلم . . !!

سبحان اللّه ، أمل الرسل الكرام من قبل . . إن يـوسف الصـديق ـ بعدما أوتى الملك ـ دعا اللّه أن يميته على الحق : ﴿ . . . فاطر السمـوات والأرض أنت وليى فى الدنيـا والآخرة توفنى مسلمًا وألحقنى بالصالحين﴾[2] .

كذلـك يدعو محمد ربـه ، وهو فى حجة الـوداع ، بعدما نكس الأوثـان ، ومحا الجاهلية وأقام دولة التـوحيد! والجميل أنه بعد خمس سنين مـن غزو الأحزاب للمدينـة يذكر النصر الذى منحه القدر، والذى جاء نجدة مشرقة بعد كفاح معنت رهيب .

إنه اللّه أنجـز وعده وهزم الأحزاب وحده ، ومـا كان غيره يفل حدهـم ويمزق شملهم ويبطل كيدهـم . . إنه اللّه أهل الحمد والثناء ، وأهل التقوى وأهل المغفرة . . !!

هل استراح الإيمان وحملتـه بعد هذه المعارك المظفـرة؟ كلا . . إن القوى الكافـرة ستظل تبغض الحق ورجاله ، وتقلب لهم الأمور، بيـد أن رجالات الإسلام سيمضون فى الطريق إلى نهايته ولو كره الكافرون . .

---

(١) سورة غافر : ٦٠ .

(٢) سورة يوسف : ١٠١ .

تتبعت كلمات النبى صلى اللّه عليه وسلم فى مناسك الحج، ظانا أنى سأطالع أدعية مستفيضة ففوجئت بوجازة الكلمات التى قالها!!

لكن المسلمين أحدثوا لكل شوط فى الطواف أو السعى وردًا يتلى! وأحدثوا ليوم عرفة أدعية مسهبة، والعاطفة وراء هذا الإلحاح مقدورة، والمقبل على اللّه لا يستغرب منه أن يستعين بكل كلمة تترجم عن شوقه وأمله، وأن يتشبث بكل حرف يظنه مفتاحًا لخزائن الرحمة العليا. .

إن أى مسلم ينشد لنفسه وأهله الرضا والقرار، فهو يقول مع موسى الكليم: ﴿رب إنى لما أنزلت إلىّ من خير فقير. .﴾[1].

والدعاء الذى لم يسأم النبى تكراره فى الطواف والسعى: ﴿ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار﴾[2].

والنشيد الذى يتردد بين قمم الجبال وبطون الأودية هو: «لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شىء قدير». . الألوف المؤلفة تصرخ به، وتتلاقى عليه. .

---

(١) سورة القصص: ٢٤.

(٢) سورة البقرة: ٢٠١.

ذكـــر وتذكيــــر

فى وهج الحر قـد يأوى المرء إلى حجرة «مكيفـة» الهواء، يبقى داخلها مـراح الأعصاب! وربما كان حظه أتم فذهب إلى مصيف عليل الريح لطيف الأنفاس، فهو ـ حيثما اتجه ـ فى ربيع دائم!!

إن علاقة المؤمنين مع ربهم، نور السموات والأرض، تتراوح بين هذه المنازل، فقد يعيش العابد فى صومعـة معزولة عن ضجيج المجتمعات وآثامها، راكنـا إلى الحميد المجيد الفعال لما يريد، فهو سعيد بربه ترنو إليه بصيرتـه، وتتحدد عنده وجهته، ويظل كذلك بعيدًا عن لفح الحياة الضالة، والعوج الشائع . . .

وربما رزق بيئـة صالحة، انهزم فيهـا الشيطان، واستقـر فى جنباتها الحق، وتجاوبـت فى أرجائهـا أصداء التسبيـح والتحميد، فهـو يمشى على نور مـن يقينه، وأنـوار من إخـوانه المتعاونين معه على البر والتقوى . .

كان الصحابه رضـوان اللّه عليهم يستمتعون فى جوار النبى صلى اللّه عليـه وسلم بربيع دائم من الأنس باللّه، والهتاف باسمه.

وكان النبـى الجليل ـ كما وصفه ربـه ـ سراجًا منيرًا يـرمى بأشـعته فى كل أفــق، ويجمع الناس على وحدانيـة جياشة المشاعـر والمسالك، تتصدر كـونًا كبيرًا، كل شىء فيـه يسبح بحمد ربه!!

شعرت بأبعاد العبودية التى قامت عليها سيرة النبى الخاتم فى مناح كثيرة من حياته صلى اللّه عليه وسلم، ولكننى تـريثت طويلا عند طرفة عميقة الدلالـة، رواها ابن عباس قال: «جاء رجل إلى النبى صلى اللّـه عليه وسلم فقال: رأيتنى الليلة وأنا نـائم كأنى أصلى خلف شجرة، فسجدت فسجدت الشجرة لسجودى! فسمعتها تقول: اللهم اكتب لى بها أجرًا،

وحط عنى بها وزرًا، واجعلها لى عندك ذخرًا، وتقبلها منى كما تقبلتها من عبدك داود عليه الصلاة والسلام!!».

قال ابن عباس: سمعت رسول اللّه قرأ سجدة، ثم سجد، فقال مثل ما أخبره الرجل عن قول الشجرة!!

هذه الطرفة، كما قلت، عميقة الدلالة فهى تدل على أن صاحب الرؤيا أحسن الاستفادة من تعاليم الإسلام حتى نضح ذلك على سريرته. وهو نائم.

وهى تدل كذلك على أن فؤاد الرسول المربى موار بعاطفة من حب اللّه يهيجها أى شىء، فقد التقط الدعوات المنسوبة إلى الشجرة، وأخذ يرددها هو فى سجود خاشع لرب العالمين..

وصلة الأنبياء باللّه تتحرك للملابسات المثيرة! إن زكريا لما رأى القدرة العليا تتجرد من قانون السببية، وتسوق الفضل الإلهى إلى مريم بغير حساب، انعطف إلى ربه يجأر: **﴿هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء﴾**[1].

ومحمد صلى اللّه عليه وسلم تربطه بنور السموات والأرض روابط فوق الحصر.

وقد كان جهده أن يجعل البيئة كلها من حوله عابدة ساجدة ذاكرة شاكرة. روى النسائى عن يعقوب بن عاصم عن رجلين من أصحاب رسول اللّه أنهما سمعا النبى صلى اللّه عليه وسلم يقول: «ما قال عبد قط: لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شىء قدير، مخلصًا بها روحه، مصدقًا بها قلبه، ناطقًا بها لسانه، إلا فتق اللّه له السماء فتقا، حتى ينظر إلى قائلها من الأرض! وحق لعبد نظر اللّه إليه أن يعطيه سؤله».

لا أحب أن أفسد هذا المعنى السمح بتكلف تأويل! كل ما يفيده الحديث المروى أن القلب الموحد قد تعرض له فورات إخلاص وصدق، تجعل كلمة التوحيد تنطلق من فمه، فما يقفها دون عرش الرحمن شىء! وما يشقى صاحبها بعدها أبدا..

والتوحيد المذكور فى هذه السنن يقوم على فقه لأسماء اللّه الحسنى، واصطباغ بمعانيها، والحامد للّه، أو المادح له أهل لأن يعود قرير العين..

---

(١) سورة آل عمران: ٣٨.

ويحضرنى قول لأحد العارفين وقد سئل: ما أفضل الدعاء يوم عرفة؟ أجاب: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير».

قيل له: هذا ثناء، لا دعاء..!! قال: أما تعرف قول الشاعر:

أأذكر حاجتى أم قد كفانى ... حياؤك إن شيمتك الحياء!

إذا أثنى عليك المرء يومًا ... كفاه من تعرضه الثناء!

روى الطبرانى أنه كان مما دعا به النبى صلى الله عليه وسلم عشية عرفة: «اللهم إنك ترى مكانى، وتسمع كلامى، وتعلم سرى، وعلانيتى، لا يخفى عليك شيء من أمرى...

أنا البائس الفقير، المستغيث المستجير، الوجل المشفق، المقر المعترف بذنبه، أسألك مسألة المسكين، وأبتهل إليك ابتهال المذنب الذليل، وأدعوك دعاء الخائف الضرير. من خضعت لك رقبته، وذل جسده ورغم أنفه.. اللهم لا تجعلنى بدعائك شقيا، وكن بى رءوفًا رحيما يا خير المسئولين ويا خير المعطين».

وارتباط الثناء بالدعاء ملحوظ فى قول النبى صلى الله عليه وسلم: «أعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، سبحانك لا أحصى ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك». وكذلك فى قوله عليه الصلاة والسلام: «أفضل الذكر لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء الحمد لله».

ولننبه إلى أن حركة الشفتين ـ والقلب وسنان ـ لا تعنى شيئًا، أما عندما يكون النطق ترجمة لشوق هائج، وفؤاد مفعم، فإن النعم على كثرتها تتضاغر أمام حمد مرسلها، والإحساس بمنته!

عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما أنعم الله على عبد نعمة فقال: الحمد لله إلا كان الذى أعطى أفضل مما أخذ». وفى رواية: «لو أن الدنيا بحذافيرها فى يد رجل من أمتى ثم قال: الحمد لله، لكان الحمد لله أفضل من ذلك».

قال القرطبى وغيره: أى لكان إلهامه الحمد أكثر نعمة عليه من نعم الدنيا، فثواب الحمد لا يفنى، ونعيم الدنيا لا يبقى! وهذا تفسير حسن، والتفسير القريب أن حمد الله ـ تبارك اسمه ـ كاف فى تقدير النعمة وتقييدها مهما كانت كبيرة..

على إن إحسان الحمد والمدح لا يقدر عليه كل إنسان، كيف تمدح من تجهل؟ كيف

تحمد مـن لا تعامـل؟ الأمر يحتاج كما أشرنـا إلى فقه فى أسماء اللّـه الحسنى يكشـف عظمة الذات والصفات وذلك يقوم على جملة عناصر:

منها تدبر القرآن الكريم حين يتحدث المولى الجليـل عن نفسه ويبصر بآياته ، إن الرجل العادى يستقبل النهار، ويستـدبر الليل دون وعى ، وهنا يستثير القرآن الكـريم وعيه ، من فعل ذلك؟ اللّه : **﴿فالق الإصباح وجعل الليل سكنًا والشمـس والقمر حسبانًا ذلك تقدير العزيز العليم﴾**[1]!

والمرء يرى ببـلاهة مساحـات هائلة من الحقـول والحدائق ينشق فيها الطين الأصـم عن أنواع كثيرة مـن الحبوب والفواكه ، مـن صاغها على هذا النحـو المعجب وحشاها بـالسكر والنشا وشتى الطعوم والروائح؟ **﴿وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء فأخرجنـا منه خَضِرًا نخرج منه حبـا متراكبا ومن النخل مـن طلعها قِنْوَان دانية وجنـات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه . . ﴾**[2].

إن التأمـل فى الكون بـاب واسع إلى معـرفة جملـة من أسماء اللّـه الحسنى ، ودلالـة هذه الأسماء على الله تبارك وتعالى . .

ومع التـأمل فى الكون يجىء التـأمل فى أحوال الأفـراد والأمم ، ودراسـة التاريخ قـديمه وحديثه ، وكيف يعطى ربنا ويمنع ، وكيف يضحك ويبكى!

إن المسافة لا تطول كثيرًا بين قـول فرعون : **﴿ما علمت لكـم من إله غيرى﴾**[3]. وبين قولـه حين شدته مـوجة غضب إلى قـاع اليم : **﴿آمنـت أنه لا إلـه إلا الذى آمنـت به بنـو إسرائيل﴾**[4].

ولكننا ـ معشر البشر ـ صرعى الساعة الحاضرة ، ومـا نحسن دراسة سنن اللّه فى الآحاد والجماعات .

وكم من أمم ركبت رأسها ثـم كبت بعد أيام أو أعوام : **﴿ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى إلا الكفور﴾**[5].

وقد حوى القرآن صنـوف العبر من هذا القبيل حتى يعرف النـاس ربهم ويحسنوا مراقبته وتقواه ، وتنغـرس فى خلالهم مشاعر الـرغبة والرهبة على نحـو ما قال النبى صلى اللّـه عليه

---

(١) سورة الأنعام : ٩٦ . (٢) سورة الأنعام : ٩٩ .
(٣) سورة القصص : ٣٨ . (٤) سورة يونس : ٩٠ . (٥) سورة سبأ : ١٧ .

وسلم : «لو يعلم المؤمن ما عند اللّه من العقوبـة ما طمع فى جنته! ولو يعلم الكافر ما عند اللّه من الرحمة ما قنط من رحمته أحد»!!

والمعرفة النظرية بالكون وعلومه والناس وتواريخهم يجب أن تتحول إلى إحساس وعمل، وإلا فهى كالطاقة الكهربائية المحبوسة وراء مواد عازلة ما تنير مصباحًا، ولا تحرك آلة . .

وهنا أقـول : إن أعظم إنسان عرف ربـه، وتحولت كل ذرة فى كيـانه إلى قوة ساجـدة هو محمد بن عبداللّه الـذى كان القرآن له خلقًا، فهو يستبطن معانيه ويـدور مع توجيهه، إنه مشدود أبدًا إلى آيات اللّه فى الوحى الهادي والملكوت الواسع، وهو يجتذب من اتصل به إلى هذا المستوى الطهور العالى، فيجعله عارفًا باللّه، قوامًا بأمره .

لذلك رأينا صحابته أصدق الناس إيمانًا، وأصفاهم فطرة . .

ولست أصدق أن أحدًا يجهل محمدًا، ثم يتخذ إلى اللّه طريقًا موصلة!!

أبرز ما فى سيرة هذا النبى أن حبه للّه، وإعظامه للّه، وتفانيه فى اللّه ينتقل من نفسه إلى من حوله، فكأنهم فى سباق إلى حمد اللّه والثناء عليه . . ولننظر إلى هذه الأحاديث .

روى أحمد عن عبداللّه بن عمر أن عبدًا من عباد اللّه قال : «يا رب لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك، ولعظيم سلطانك» .

فعضلت بالملكين فلم يدريا كيف يكتبـانها، فصعدا إلى السماء فقالا: يا ربنا إن عبدك قد قال مقالة لا ندرى كيف نكتبها؟! قال اللّه ـ وهو أعلم بما قال عبده ـ ماذا قال عبدى؟ فالا: يا رب إنه قد قال : يا رب لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك، وعظيم سلطانك .

«فقال اللّه لهما اكتباها كما قال عبدى حتى يلقانى فأجزيه بها . . »

وظاهـر أن هذا العـابد كان فى سيـاحة روحيـة طوفت بـه فى آفاق لا يعلمهـا إلا اللّه، استجمع فيها من الآيات، والعبر ما شحن قلبه، وغمر حسه، وغلب على ظاهره وباطنه، فلم ير إلا أن يحيى ربه بهاتين الجملتين . .

ورأى الملكان أن ما قال فوق ما لديهما من ضوابط الأجور، ففعلا ما فعلا .

وعن أبى أيوب قـال : قال رجل عند رسول اللّه صلى اللّه عليـه وسلم : الحمد للّه حمدًا كثيرً طيبًا مباركًا فيه : فقـال رسول اللّه : «من صاحب الكلمة؟ فسكت الـرجل، وظن أنه قد هجـم من رسـول اللّه على شـىء يكرهـه! فقال رسـول اللّه «مـن هو؟ فـإنه لم يقـل إلا صوابًـا» . فقال الرجل : أنـا قلتها يا رسول اللّـه أرجو بها الخير! فقال رسول اللّـه صلى اللّه

عليه وسلم : «والذى نفسى بيده لقد رأيت ثلاثة عشر ملكًا يبتدرون كلمتك . أيهم يرفعها إلى اللّه تبارك وتعالى» .

وعن أنس بن مالك قال : قال أبى بن كعب : لأدخلن المسجد فلأصلين ، ولأحمدن الله بمحامد لم يحمده بها أحد ! !

فلما صلى وجلس ليحمد اللّه ، ويثنى عليه فإذا هو بصوت عال من خلفه يقول : اللهم لك الحمد كله ، ولك الملك كله ، وبيدك الخير كله ، وإليك يرجع الأمر كله علانيته وسره ، لك الحمد إنك على كل شىء قدير. اغفر لى ما مضى من ذنوبى ، واعصمنى فيما بقى من عمرى ، وارزقنى أعمالا زاكية ترضى بها عنى ، وتب على .

فأتى رسول اللّه صلى الله عليه وسلم ، فقص عليه ، فقال : «ذاك جبرائيل عليه السلام» .

وليس غريبًا أن يهبط الملك بهذه الدعوات ليستوعبها قلب يشرئب إلى مدح اللّه على نحو لم يسبق إليه ، لقد كانت الملائكة تتنزل عندما يقرأ بعض الصحابة القرآن الكريم .

الشىء الذى يستدعى التساؤل : من الذى دفع هؤلاء الأصحاب إلى الإيغال فى طريق التوحيد والتقديس حتى تفجرت ينابيع الحكمة من ألسنتهم ونطقوا بكلمات زاكيات فى تمجيد اللّه وإجلاله؟ إنه النبى العربى المحمد ، من غيره وراء هذه العواطف المشبوبة؟ إنه الإنسان العباد السجاد الذكار الشكار الذى ألهم التسبيح والتحميد مع كل زفير وشهيق . . لقد حول الأرض إلى حلبة تنافس السماء فى الذكر، والشكر.

عن النعمان بن بشير قال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «إن مما تذكرون من إجلال اللّه من التسبيح والتحميد والتهليل ، ينعطفن حول العرش لهن دوى كدوى النحل ، تذكر بصاحبها ! أما يحب أحدكم أن يكون له ، أو لا يزال له ، ما يذكر به؟» .

وعن عبداللّه بن مسعود : إذا حدثتكم بحديث أتيناكم بتصديق ذلك فى كتاب اللّه ، إن العبد إذا قال : سبحان اللّه ، والحمد للّه ، ولا إله إلا اللّه واللّه أكبر، وتبارك اللّه قبض عليهن ملك ، فضمهن تحت جناحه ، وصعد بهن لا يمر على جمع من الملائكة إلا استغفروا لقائلهن ، حتى يُحيا بهن وجه الرحمن ، ثم تلا عبداللّه : **﴿إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه﴾**[1] .

---

(١) سورة فاطر: ١٠ .

قالوا: فـاقد الشيء لا يعطيه، ومـن تمام ذلك أن يقال: ومعطى الكثير لابـد أن يكون لديه أكثر! إن الأنهار الجارية تجيء عقب مطر هتان يسح آناء الليل، وأطراف الأنهار .

والحق أن السلف الصالحين الـذين تربوا بين يـدى محمد، وكل جيل مـن الأبرار تبعهم بإحسـان إلى يومنـا هذا، ثم إلى آخـر الدهـر، إن هؤلاء، وأولئك بشخصيـة محمد تـأثروا، وبروحانيته استناروا، ومن رسوخ يقينه استمدوا.

إن صحبته فى حياته، وصحبـة مواريثه العقلية والخلقية بعد مماتـه تفعلان الأعاجيب، وبقدر الاقتبـاس من مولد الطـاقة تكون القوى الـروحية والفقهية، والأساس كلـه عظمة المصدر.

إن بيننا وبين الشمس مائة وخمسين مليون كيلو متر، من ناحية البعد.

ولا ندرى من ناحية الزمان متى بدأ إشعـاعها؟ لكن بعد الزمان والمكان لم يغير من قدرة الشمس على الإضاءة والإنضاج واستبقاء الحياة على كوكبنا.

كذلك أثر محمد صلى اللّه عليه وسلم فى المستقدمين والمستأخرين، أثر عبادته وقيادته، أثر سيرته ودعوته، وإن طال الزمان، واتسع المكان..!

ومنهج الـذكر والتذكير فى رسالـة خاتم المرسلين يحتـاج إلى شرح.. إن الصدق العقلى أسـاسه الأول، والكلمات التـى أهـاب الإسلام بـأتباعـه أن يـرددوها هـى قضـايا علميـة صحيحة.

فكلمة: لا إله إلا اللّه، أو سبحـان اللّه، أو تعالى اللّه، تعنى تقريـر الصواب وتوكيده فى أخطر أصول الاعتقاد.. وتدبر قوله جل شأنه: **﴿ما اتخذ اللّه من ولد ومـا كان معه من إله إذن لـذهب كل إلـه بما خلق ولعلا بعضهم على بعـض سبحان اللّه عما يصفـون* عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون﴾**[1].

ليس للّـه أم، ولا أب، ولا ابن ولا ابنة، إنه واحـد، وما عداه عبد يخضـع لأمره، وإذا شاء سحب منه نعمة الوجود، فباد، وتلاشى.

نعم ما عـدا اللّه فهو جزء مـن الكون الذى يبقى لأن اللّه يمـده بالوجود بعـدما أوجده بدءًا، كما يخمد المصباح إذا قطعت عنه التيار.

نعم لا شريك للّه، ولا حول ولا قوة إلا به، له الفضل، والملك والحمد.

---

(١) سورة المؤمنون: ٩١ـ٩٢.

ومحمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ أجهـر البشر صوتًا بهذه الحقيقة، وأغير الناس عليها، وقد زاد بصوتـه، ويده خرافات كثيفة عكرت صفـوها واستنقذ جماهير هائلة كـانت جائرة عنها . .

ولا تعرف فى سيرة الأنبيـاء، وقادة الإنسانيـة الكبار من قـام بمثل جهده ولا مـن نجح مثل نجـاحه، ولا أحسب الأبـالسة ومردة الإنس والجن غـاظهم أحد ولا اعترض آثـامهم غاضب للـه، مثل ما فعل محمـد القوى بربه، المجـاهد فى سبيله، فقد أنصـف الحق من الباطل، والرشد من الغى .

وبنى ـ وهو قوام الليل ـ جيوشًـا يشق تكبيرها عنان السماء، تصرخ بأن اللّه واحد، وأن الخلـق كلهـم ـ وأولــهم محمد ـ عبيــد لمن فاضـت عليهم بركتــه، ونسقـت معـايشُهم حكمته . . ! !

إذا كان الـدين قلبًا طيبًا، فهـو قبل ذلك عقـل سليم، وفكر حسن، وعلـم صحيح : ﴿شهـد اللّه أنـه لا إله إلا هـو والملائكة وأولـو العلم قـائمًا بالقسـط لا إله إلا هـو العزيـز الحكيم﴾[1] .

ونحن لا نسـأم من توكيد هـذا القول لأن الدنيا لا تـزال تسمع من يقول : إن للّـه أما، وأبًا، وإن الذات المقدسة ثالوث ذو رءوس متميزة، هى أب، وابن، وروح قدس . . وهو كلام صفر من أيـة حقيقة، مصدره إشاعة من بعض العقول العليلـة، والخيالات المغالية، الجانحة للأوهام . . كلام ما قاله نبى سبق، ولا أقره عقل محترم ! !

وأهل الكتاب ــ أعـنى النصارى خاصـة ـ يكرهـون كلمة التوحيد، وقد حـاربوها ولا يزالون، وسوف نبقـى عليها، ونلقى ربنا بها . . روى أحمد عن شداد بـن أوس ـ وعبادة بن الصامت يصدقه ــ قال : كنا عند النبى صلى اللّه عليه وسلم فقال : هـل فيكم غريب ؟ـ يعنى من أهل الكتاب ــ قلنا : لا يا رسول اللّه، فأمر بغلق البـاب، وقال : ارفعوا أيديكم وقولوا : لا إله إلا اللّه ـ كأنه يبايعهم ـ فرفعنا أيدينا ساعة ـ فترة ـ ثم قال : «الحمد للّه اللهم إنك بعثتنى بهذه الكلمة، وأمرتنى بها، ووعدتنـى عليها الجنة، وأنت لا تخلف الميعاد، ثم قال : أبشروا فإن اللّه قد غفر لكم» . . .

وسناء الفكر، مهما بلغ، لا يغنى عن زكاة القلب، وصفاء الروح، لقد كان إبليس يعلم

---

(١) سورة آل عمران : ١٨ .

أن اللّه واحد، ولكنه أبى أن يلتزم بمبدأ السمع والطاعة، أبى أن يتواضع، وينكر ذاته، أبى أن يكبت نزوات الحقد والاستطالة على الآخرين، أبى أن يكون عبدًا حقا للّه.

والهيكل الأخلاقى الضخم الذى بناه صاحب الرسالة الخاتمة إنما ينهض على قلب سليم، ترتبط باللّه رغبته ورهبته، ولذلك قال: «التقوى ها هنا التقوى ها هنا، التقوى ها هنا». ويشير إلى قلبه.

والقرآن بعد ما يشرح الحقيقة العلمية يشرح الحقيقة الروحية، أو الخلقية وما ينبنى عليهما من سلوك. قال تعالى: ﴿**إن ربكم اللّه الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يُغشى الليل النهار يطلبه حثيثًا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك اللّه رب العالمين**﴾[1].

ماذا بعد هذه الحقائق العلمية عن رب الزمان والمكان: ﴿**ادعوا ربكم تضرعًا وخُفية إنه لا يحب المعتدين**﴾[2]. لابد أمام اللّه من الضراعة، والدعاء المصحوب بالفقر، المقرون بالخفوت ـ لأنه أدل على الذات وما فيها ـ ومن تجاوز هذا المستوى فهو يعدو حدوده.

ثم ماذا؟ إن اللّه قد نظم للأرض ما تصلح به فلا يجوز أن نثير الفوضى فيما وضع، وعلينا أن نبلغ بالأعمال حد الإتقان، وليبق نظرنا إلى السماء دائما نرجو الخير، ونحذر الشرور: ﴿**ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفًا وطمعًا إن رحمة اللّه قريب من المحسنين**﴾[3]. وفى مكان آخر من السورة نفسها يقول تبارك اسمه: ﴿**واذكر ربك فى نفسك تضرعًا وخيفة ودون الجهر من القول بالغُدوِّ والآصال ولا تكن من الغافلين**﴾[4].

والذكر المقصود حركة قلب، لا حركة لسان كما يتوهم الجهال، حركة قلب يوجه صاحبه هنا أو هنالك وينشطه أو يكبو به، عن أم أنس رضى اللّه عنها قالت: يا رسول اللّه أوصنى! قال: «اهجرى المعاصى فإنها أفضل الهجرة، وحافظى على الفرائض فإنها أفضل الجهاد، وأكثرى من ذكر اللّه فإنك لا تأتين اللّه بشىء أفضل من ذكره»!!

الذكر الذى جاءت الوصايا به شىء آخر غير ما يسبق إلى أذهان الدهماء.

إنه مصدر السكينة والاستقرار تجاه صروف الدنيا ومتاعبها، ففى حضارتنا المعاصرة كثر المثقفون، وشاعت المعارف الذكية، ومع ذلك فإن اضطراب الأعصاب، وانتشار الكآبة داء عام..

---

(١) سورة الأعراف: ٥٤.
(٢) سورة الأعراف: ٥٥.
(٣) سورة الأعراف: ٥٦.
(٤) سورة الأعراف: ٢٠٥.

ما السبب؟ خراب القلوب من الله! إنها لا تذكره كى تتعلق به وتركن إليه، وكيف تذكر من تجهل؟ إن الحضارة الحديثة مقطوعة العلاقة بالله، والإنسان مهما قوى ضعيف، ومهما علم قاصر، وحاجته إلى ربه حاجة الطفل إلى أبيه يحنو عليه، ويحميه.

وذكر الله أمام الأزمات والنوازل عزاء ورجاء، قال تعالى: ﴿**الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب* الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب**﴾[1].

وقد كان محمد صلى الله عليه وسلم أوثق الناس بالله، وأشدهم تعلقًا به. منذ بدأ الدعوة قيل له: ﴿**واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا* رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا**﴾[2]. من يومها توكل على الله وواجه قوات الشرك والكفر، فما هان، ولا استكان.

وقد علم محمد الناس أن يثقوا من حنو الله عليهم، ورحمته بهم، وأفهمهم أنه أحنى عليهم، وأرحم بهم من الأم برضيعها، فلماذا ينأون عنه، ويفرون منه؟.

وذكر الله هو وحده أساس الضمير الكاره للآثام، العاصم من الانحراف!

أعرف أن هناك أناسًا لهم حناجر صياحة باسم الله، إننى لا أعنى هؤلاء أبدًا إنما أعنى إنسانًا يحس بإشراف الله عليه ﴿**فلنقصَّنَّ عليهم بعلم وما كنا غائبين**﴾[3]. فإذا هم بسوء توقف، وإذا زين له الشيطان قبيحًا كشف خداعه ورفض متابعته، واستحضر عظمة ربه، ونهيه، فاستقام..

هذا الذاكر العفيف النبيل هو الذى عنته الآية الكريمة ﴿.. **وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى* فإن الجنة هى المأوى**﴾[4].

ما أكثر الألسنة المتحركة باسم الله، وأقل جدواها! وما أندر الأفئدة الخاشعة لذكر الله، وأحوج العالم إليها.. إن فساد الأديان يجيء من تحولها إلى ألفاظ ومظاهر، وما يؤدى الدين رسالته إلا يوم ينشئ ضمائر حية وسرائر طهورًا، وقلوبًا ترمق الشهود الإلهى برهبة، ذلك هو الذكر الحق..

---

(١) سورة الرعد: ٢٨ ـ ٢٩.
(٢) سورة المزمل: ٨ ـ ٩.
(٣) سورة الأعراف: ٧.
(٤) سورة النازعات: ٤٠ ـ ٤١.

ومن آثار هذا الذكر أنه يحكم غريزة حب المال، فالذاكرون لا يلهيهم التكاثر، ولا تزرى بهم طبائع الجشع والشح. هـم يأخذون المال من حله، ويضعونـه فى حقه، ولا يحبسونه، ووجوه الخير تنتظره، بل هم كما قيل:

لا يألف الدرهـم المضـروب صرتنـا لكن يمـر عليهـا وهو منطـلق

والغاشون من رجـال الأديان سقطوا فى حبائل المال وجمعه واكتنازه، فـأعانوا، أو سكتوا عن الحكـام الفسقة، ومهدوا الطـريق أمام الفلسفـات الملحدة كـى تحكم بعدمـا ساءت سمعة الدين، والمتحدثين باسمه!!

لكن النبى العربى المحمد وزع كل ما جاءه من أموال على الناس، وخرج من الدنيا بلا ميراث لأهل، وربى رجالا يؤثرون وجـه اللّه على متاع الدنيا كله: ﴿**ويطعمون الطعام على حبه مسكينًا ويتيمًا وأسيرًا* إنما نطعمكم لوجه اللّه لا نريد منكم جزاء ولا شُكورًا**﴾[1].

والطريف أن العشرة المبشرين بالجنة كانوا من هـذا الطراز الذى ملك الدنيا، ونزل عنها للّه..

ليس النجاح أن يكـون المرء عديم المال والأهل، ولكـن النجاح أن يكون المرء كثير المال والأهل، ومع ذلك لا يشغله شىء من ذلك عـن ربه مصداق قوله سبحانه وتعالى: ﴿**يأيها الذيـن آمنوا لا تلهكـم أموالكـم ولا أولادكم عـن ذكر اللّـه ومن يفعـل ذلك فـأولئك هـم الخاسرون* وأنفقوا مما رزقنـاكم من قبل أن يأتـى أحدكم الموت فيقول رب لـولا أخرتنى إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين* ولن يؤخر اللّه نفسًا إذا جاء أجلها..**﴾[2].

ولذكر اللّه آثار كثيرة فى الأخلاق والمسالك ليس هنا موضع تتبعها وحسبنا أن نقول: إن ذكـر العظيـم يرفـع القـدر ويعقـد العـزم، والاستعـداد للقائه يمنـع الطغيـان، ويضبـط الحقائق..

من عرف الناس بـربهم، وذكرهم بحقوقه، وفند الشائعات البـاطلة فى ميدان العقائد، وبين أنه لا إله إلا اللّه؟ إنه محمد عليه الصلاة والسلام، لكن كيف نجح فى اقتياد الأجيال إلى الصراط المستقيم؟

---

(١) سورة الإنسان: ٨ـ٩.

(٢) سورة المنافقون: ٩ـ١١.

إنه عندما بدأ الدعـوة فى مكة هاج عليه الأكثرون : ﴿وقالوا يأيها الذى نـزل عليه الذكر إنك لمجنون﴾[1]. بيد أنـه مضى إلى غايته يحارب الجنـون المتبجح وما زال بعين اللّـه حتى أقام دولة الحق .

كان القرآن خلقه ، كـانت دراسته لباب فكره ، وتيار شعوره ، كانـت وصاياه ، وأوامره ، ونواهيه جـوهر سلوكه ، وأساس عـلاقاته بالناس جميعًـا كانت تلاوته سعـادة روحه ، وقرة عينه ، ومرضاة ربه !

وفى الحديث : «ما أذن اللّه لشىء إذنه لنبى يقرأ القرآن يتغنى به» ، إن ما صدر عن اللّه وحيًا ، يطبق فى الأرض قانونًا وخلقًا ، ثم يعود إليه نغمًا عذبًا . .

ونذكر هنا قصة عن أثر القرآن فى نفـس رجل مشرك ، قال جبير بن مطعم : إن أباه قدم المدينة مفاوضًا عـن قريش فى افتداء أسرى بدر والرجل من عظماء مكـة ، والمهمة التى جاء من أجلها تخليص سبعين من صناديد قريش أوقعهم البطر بأيدى المسلمين . .

وسمع الرجل المشرك نبى اللّه وهو يقرأ سـورة الطور فى صلاة المغرب ، قال : ما سـمعت أحـدًا أحسن صـوتًا أو قـراءة منه . . واستمـر الرجـل يسمع الآيـات فى المحراب الخاشـع المخبت ، وهو مسحـور بالتلاوة المرسلة ، قال : فلما بلـغ هذه الآيات : ﴿أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون* أم خلقوا السمـوات والأرض بل لا يوقنون﴾[2]. إلخ قال مطعم : كاد قلبى أن يطير . . !!

وكان سماعه هذه الآيات ـ وهو مشرك ـ سببًا فى دخوله الإسلام بعد ذلك . .

ونتوقف هنا قليلا ، إن سورة الطور مكية ، ولا شك أنها قرئت فى مكة مئات المرات فهل لم يسمعها الـرجل إلا اليوم؟ ربما ، فـإن المشركين هناك تواصوا بـإحداث شغب وضـوضاء حول مجلس القرآن حتى لا تغزو معانيه قلبًا ، فيؤمن باللّه .

وربما سمعها مـن قبل ولكـن التعصب والكبرياء صـداه عن الحق فلما قلمـت الهزيمة أظافر قريش ، وعاد إليها رشدها ، وتواضعها أخذت تفكر فيما تسمع ! !

وقد نظـرت أنا فى الآيات التى روعـت قلب الرجل ، وتجدد فى نفســى إحساس بما أودع فيها من عبرة ، إن الآيات قصيرة ، ولكنها ذات جرس لاذع رهيب !

---

(١) سورة الحجر : ٦ .

(٢) سورة الطور : ٣٥ ـ ٣٦.

إنها تشبه المفتاح الدقيق لخزائن ضخمة، فالمعانى التى تهجم على الفؤاد بعد سماعها تشبه العواصف العاتية، تكررت كلمة «أم» خمس عشرة مرة، و«أم» عند علماء اللغة تجىء فى هذا السياق للإضراب الذى يعقبه استفهام قد يكون توبيخًا، أو تقريرًا، أو تعجبًا..

إن النفس الإنسانية تتقلب على هذه المشاعر بما ينفى عنها الغفلة، ويرغمها على الانتباه.

﴿فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون﴾[١].

﴿أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون* قل تربصوا فإنى معكم من المتربصين﴾[٢].

﴿أم تأمرهم أحلامهم بهذا﴾[٣]

﴿أم هم قوم طاغون﴾[٤]

﴿أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون * فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين﴾[٥]

﴿أم خلقوا من غير شىء﴾[٦].

﴿أم هم الخالقون﴾[٧].

﴿أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون﴾[٨].

﴿أم عندهم خزائن ربك﴾[٩].

﴿أم هم المسيطرون﴾[١٠].

﴿أم لهم سُلم يستمعون فيه فليأت مستمعهم بسلطان مبين﴾[١١].

---

(١) محمد نبى الفطرة السليمة والفعل المتوازن.

(٢) ريب المنون: قوارع الزمن، ومصيبة الموت، فلينتظروا، وستكشف الأيام لمن العاقبة.

(٣) ليس هذا منطق عقل.

(٤) بل هو النزق والطغيان

(٥) يزعمون أن القرآن كلام بشر فليأتوا إذن بمثله، وليواجهوا التحدى.

(٦) هل خلقوا من عدم؟ إن الصفر لا يوجد شيئا.

(٧) هل أوجد الجنين نفسه فى بطن أمه، وشق لنفسه السمع والبصر؟ مستحيل.

(٨) هل نحن الذين خلقنا الأرض من تحتنا والسماء من فوقنا؟

(٩) إن الله منح محمدًا النبوة، فما دخلهم فى هذا العطاء، هل خزائن الرحمة بأيديهم.

(١٠) هل لهم قدرة يدبرون بها الأمور.

(١١) إن كانت فليصعدوا إلى السماء بسلالم ويستنزلوا منها وحيًا.

﴿أم له البنات ولكم البنون﴾[1].

﴿أم تسألهم أجرًا فهم فى مغرم مثقلون﴾[2].

﴿أم عندهم الغيب فهم يكتبون﴾[3].

﴿أم يريدون كيدًا فالذين كفروا هم المكيدون﴾[4].

﴿أم لهم إله غير اللّه سبحان اللّه عما يشركون﴾[5].

هذا أثر القرآن فى رجل مشرك التفت إليه بسمعه وفؤاده .

وروى الحافظ أبو بكر بن أبى الدنيا قال : خرج عمر بن الخطاب يعسى المدينة ذات ليلة ، فمر بدار رجل من المسلمين ، فوافقه قائمًا يصلى ، فوقف يستمع قراءته ، فقرأ الرجل : ﴿والطور * وكتاب مسطور . .﴾ حتى بلغ : ﴿إن عذاب ربك لواقع * ما له من دافع﴾ .

فقال : قسم ورب الكعبة حق ! فنزل عن حماره ، واستند إلى حائط ـ وهو مروع النفس ـ فمكث مليًا ثم رجع إلى منزله ، فمكث شهرًا يعوده الناس لا يدرون : ما مرضه؟ رضى اللّه عنه» .

إن أمير المؤمنين عمر كان مفعم الصدر بخشية اللّه وهو يمشى فى أزقة المدينة يتفقد رعيته ، وينصت المسامع ليتعرف ما هنالك ، كان الرجل الكبير يحمل هموم الجماهير ، ويسهر ليقدم حسابًا إلى اللّه عما ولى من شئون الأمة ! وكانت تلك المشاعر المضغوطة كالوقود الذى يرتقب شعلة ليلتهب ، فلما سمع : ﴿إن عذاب ربك لواقع . .﴾ . كان ذلك كافيًا ليوجل قلبه ، ويشحب وجهه ، وتدمع عينه ، ويثوب إلى بيته عليلا ، وما به علة إلا مخافة اللّه .

وعمر إن شاء اللّه يبعث من الآمنين ، فهو من السابقين الأولين والعشرة المبشرين ، ولكن الضمير الحساس لا يعرف طمأنينة حتى يلقى اللّه بما أدى ووفى . . !!

وإنما ذكرت هذه القصة لأنى مغيظ من رعاع يلتفون حول قارئ القرآن ناعم الأوتار ،

---

(١) يزعم المشركون أن آلهتهم بنات اللّه مع أنهم يضيقون من نسبة البنات إليهم .

(٢) إنك متجرد فى دعوتك لا تبغى من ورائها مالا ولا جاهًا فماذا يضايقهم .

(٣) القرآن من عند عالم الغيب فأنى لهم بلوغ مستواه؟

(٤) إذا كانوا يمكرون اليوم بك فغدًا يهزمون .

(٥) ما عدا اللّه عبد له ، وكل إله غيره كذب . والآيات من سورة الطور: ٢٩ـ٤٣.

فإذا هـم يصيحون حـوله بسفه، مـا يفقهون مـن معنى، ولا يستضيئـون بعظة، تحول بهم مجلس القرآن إلى مجلس لغو، ولهو، قبحهم اللّه. . !!

وكم أساء المسلمون إلى كتاب اللّه، وإلى ذكر اللّه!!

إن الآيات التى طار لها قلب امرئ واع ـ من سورة الطور ـ والتى ساقته ـ وهو مشرك ـ إلى الإيمان باللّه، هذه الآيات بدأت بجملة واضحة: ﴿فذكر فما أنت بنعمـة ربك بكاهن ولا مجنون﴾. هذا التـذكير هو إنشاء برامـج لحياة جديدة، هـو بناء حياة من طـراز راشد على أنقاض حياة بالية. .

والذكر هنـا معاملة مع اللّـه، وهى معاملة فيهـا تبادل نشاط وتقديـر إن صح التعبير ـ وللّه المثل الأعلى ـ وهـذا معنى يتضح من الحديث القدسى المشهور: «يقـول اللّه: أنا عند ظن عبدى بى، وأنا معه، إذا ذكرنى فى نفسه ذكـرته فى نفسى، وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منهـم، وإن تقرب إلى شبرًا تقربـت إليه ذراعًا، وإن تقـرب إلى ذراعًا تقربـت إليه باعًـا، وإن أتانـى يمشى أتيته هـرولة». وفى رواية عـن أحمد بعد ذلـك: «. . واللّه أسرع بالمغفرة».

إن هذا الذكـر هو إقبال رجل على اللّـه بعزم، وقبول اللّه لـذلك، وإقباله عليـه أجل، وأزكى. .

ولصاحب الرسالة كلمات مضيئة فى هذا الميدان نستهدى بها:

«من قال: لا إله إلا اللّه مخلصًا دخل الجنة»: وما إخلاصها؟ قال: «أن تحجزه عما حرم اللّه عليه».

«كلمتـان خفيفتان على اللسـان ثقيلتان فى الميـزان، حبيبتان إلى الـرحمن، سبحان اللّـه وبحمده، سبحان اللّه العظيم».

«الطهور شطر الإيمان، والحمـد للّه تملأ الميزان، وسبحان اللّه والحمـد للّه تملآن ما بين السماء والأرض، والصلاة نـور، والصدقـة برهـان، والصبر ضياء، والقـرآن حجة لـك أو عليك، كل الناس يغدو، فبائع نفسه، فمعتقها، أو موبقها».

وعن ابن أبى أوفى، قال أعرابى: يا رسول اللّه إنى عالجت القرآن فلم أستطعه ـ لم أقدر على حفظه ـ فعـلمنى شيئـا يجزى عن القرآن! قال له الرسول: «قـل: سبحان اللّه والحمد

لله ولا إله إلا الله والله أكبر» . وزاد فى رواية : «ولا حول ولا قوة إلا بالله» . قال الأعرابى : يا رسول الله هـذا لربى ، فما لى؟؟ قال : «تقول : اللهم اغفر لى وارحمنى وعافنى وارزقنى - أحسبه قال - واهدنى» .

ومضى الأعرابى ، فقال رسول الله : «ذهب الأعرابى وقد ملأ يديه خيرًا . . » .

والأحاديث فى ذلك باب واسع ، والذى يكتب عن النبى العربى المحمد فى الأخلاق يظن سنته كلها خلقًا ، أو فى الجهاد يظن سنته كلها جهادًا ، أو فى الذكر يظن سنته كلها ذكرًا . .

إن ضخامة هذا الرسول ترد المتطلع ، وهو حسير ، فسبحان من بعثه رحمة للعالمين . .

«اللهم لك الحمد حمدًا كثيرًا خالدًا مع خلودك ، ولك الحمد حمدًا لا منتهى له دون علمك ، ولك الحمد حمدًا لا منتهى له دون مشيئتك ، ولك الحمد حمدًا لا أجر لقائله إلا رضاك . . » . .

نبى المرحمة ونبى الملحمة ..

لا يستطيع ذو خلق أن يتهم محمدًا بأنه كان يريد برسالته بسطة فى المال أو بسطة فى الجاه، أو حظا من حظوظ الدنيا . .

والمعروف فى سيرته أنه كان أعلى الناس هتافًا بتوحيد اللّه وتمجيده، وأغير الناس ضد نسبة الشركاء والشفعاء إليه، وأرغبهم فى تنفيذ أمره، وتوقير وحيه: وإبعاد الأهواء عما شرع للخلائق . .

وقد كان يحزن ـ إلى حد الاعتلال ـ لصدود الجهال عنه ويأسف لمضيهم فى عماهم، ولكن اللّه عرفه أنه مكلف بالبلاغ، وحسب: ﴿**ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى* إلا تذكرة لمن يخشى**﴾[1].

وأفهمه أنه لا يقتاد الناس إلى الصراط المستقيم قسرًا، وأن الحماس والإخلاص لا يحملانه على هذا المسلك: ﴿**ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعًا أفأنت تُكره الناس حتى يكونوا مؤمنين**﴾[2]؟

لكن أتباع الأديان الأخرى أحسوا الخطر من الدعوة الجديدة، ورأوا أن ترك صاحبها يتحدث معناه انصراف الناس عنهم، فإن الإسلام له بالنفس الإنسانية قرابة، أليس صدى الفطرة؟ إن العقل يتقبله على عجل، وإن القلب يرغب فيه دون تكلف، من أجل ذلك اتخذ أعداء الإسلام طرقًا عديدة للصد عنه . . !!

ولو كانت هذه الطرق مقارنة دليل بدليل، لرحب الإسلام بهذا النزال، واطمأن إلى نتائجه . . !!

---

(١) سوره طه : ٢ ـ ٣.   (٢) سورة يونس : ٩٩.

لا . . إن الأمر مشى على سياسة الصلف والتحدى التى لا يحسن الأقوياء غيرها : ﴿وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودُن فى ملتنا﴾[1] .

إن هذه السياسة فرضت على النبى الصبور المكافح أن ينتصب للدفاع عن رسالته ، وعن المستضعفين الذين اضطهدوا معه لاعتناقها .

إذا كنت تمشى فى الظلام ومعك مصباح يضىء لك الطريق ، فإنك قد ترفع مصباحك ليهتدى معك غيرك ، وإن كره أحد الانتفاع بسناك فليتعسف السير وحده ، وليتعرض للحفر والمهالك ما شاء له هواه ، ﴿قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها﴾[2] .

لكن ما العمل إذا حاول سفيه يهوى الظلمة أن يكسر مصباحك؟ ويطفئ شعاعك؟ أليس من حقك أن تقاتله لتستبقى الهدى لك ولغيرك؟

إن ذلك ما فعله محمد ﴿ومن أظلم ممن افترى على اللّه الكذب وهو يدعى إلى الإسلام واللّه لا يهدى القوم الظالمين* يريدون ليطفئوا نور اللّه بأفواههم واللّه متم نوره ولو كره الكافرون* هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾[3] .

إن الذين يؤيدون سياسة تكسير المصابيح هم أشد الناس بغضًا لمحمد ، وكرهًا للرسالة التى جاء بها ، وهم يدركون أن الضوء عدوهم لأنه يكشف باطلهم ، ففى نور الحرية العقلية وحده يرفض الإنسان مبدأ التثليث فى الألوهية ولو قيل له تسويغًا لذلك : إن المثلث خط واحد . . ويرفض رب إسرائيل المتعصب لشعبه وحده ، المزدرى لسائر الشعوب ، الذى لم يتحدث عن الآخرة بكلمة . .

وقد شرع محمد يدعو إلى دينه ، فلننظر فى دعوته ، أترى فيها أثارة لمجد شخصى ، أو تطلعًا لغاية دنيوية؟؟

هل رأينا فى تراث إنسان أحر من هذا الحديث عن اللّه ووحدانيته ووجوب التفانى فى مرضاته؟؟

ثم لننظر فى القتال الذى خاض ميدانه ، هل رأيناه معتدا بقوته أم مستندًا إلى قوة اللّه

---

(١) سورة إبراهيم : ١٣ .

(٢) سورة الأنعام : ١٠٤ .

(٣) سورة الصف : ٧ ـ ٩ .

وحـوله وطـوله؟ هـل رأينـاه يبغى شيئًـا غير إعـلاء كلمة اللّـه؟ هل رأينـاه يقـول: الويـل للمغلوب، أو يجعل الظـروف تقول ذلك، أم ترك حـرية التدين عـامة شاملة بعـد ما قلم أظافر الطغاة؟ لنستنطق التاريخ العادل . .

كانت معـركة بدر أول قتال وقع بين الإسـلام والوثنية، وذلك بعـد خمس عشرة سنة من بدء الـدعوة، ماذا كانـت حال المسلمين خلال هذه المدة؟ كـانوا مهدرى الحقوق، كـانوا غرضًا قريبًا لكل ذى عدوان.

وكان الرسول يشكـوا إلى اللّه ضعف قوته وقلة حيلته . . ورفض الجاهليـون كل الرفض الاعتراف بالإسلام، وعده دينًا يقبله المجتمع العربى . .

أُخْرِجَ المسلمون من مكـة ـ وهى الحرم الآمن ـ وكشرت الوثنية عن أنيـابها، وبعد ما تم لها ما تـريد أعلنـت أن الهوان والطرد نصيـب كل مـن يدخـل فى الإسلام فهـل يلوم أحـد المسلمين إذا تصدوا لهذا التحدى، وقرروا الوقوف أمامه فى حدود قواهم القليلة؟

وماذا يفعلون؟ ارتقبوا فرجًا مع الغد المجهـول . . وجاء هذا الفرج من حيث لا يحتسب أحد . . فقـد فرضـت الظروف على المسلمين معركـة بدر دون أن يستعـدوا أو يخططوا لها. وشعر فريق منهم بالكره البالغ لهذا القتـال المفروض وتقدم المشركون للمعركة، وهـم واثقون من دحر الإسلام، وحفر قبره هنا . . .

وأحس النبى عليه الصلاة والسلام أن التصـدى لهؤلاء ما منه بد، وأن جهاد الماضى المر بالغ قمتـه اليوم، وأن حكم اللّه قد تتمخض عنـه هذه الساحة التى مهدهـا القدر، فاتجه عليه الصلاة والسلام إلى ربه ينشد النجدة والحمى . .

قال ابن عبـاس: قال النبى عليه الصلاة والسـلام، وهو فى قبته التى أقيمـت له ببدر: «اللهـم إنى أنشـدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تعبـد بعد اليوم . . » فأخـذ أبوبكر رضى اللّه عنه بيـده: فقال: حسبك يا رسول اللّه فقد ألححـت على ربك . . فخرج النبى وهو يقول: ﴿**سيهزم الجمع ويولون الدبر* بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر**﴾[1].

وفى رواية: استقبل نبى اللّه القبلة ثم مد يده فجعل يهتف بربه عز وجل يقول: «اللهم أنجز لى ما وعدتنى. اللهم آت ما وعدتنى، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد فى الأرض». فما زال يهتف بربه مادا يديه، حتى سقط رداؤه . .

---

(١) سورة القمر: ٤٥ـ٤٦.

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشعر أن قريشًا أقبلت بكبريائها وبطرها تريد أن تتوج اضطهادها للإسلام بيوم أغبر. . وكان يعلم أن جمهرة المسلمين صابرت البأساء والضراء أمدًا طويلا وهي متشبثة بدينها فى وجه عناد شديد، فنظر إلى حالتهم قبيل القتال المرتقب وقال: «اللهم إنهم جياع فأشبعهم. . اللهم إنهم حفاة فاحملهم. . اللهم إنهم عراة فاكسهم».

لقد كلفهم الإيمان الكثير طوال السنين التى مضت. .

ولم يكن أحد يدرى أن الله تبارك اسمه قد تأذن بتغيير الوضع كله، فأغرى قريشًا بدخول معركة هى أغنى الناس عنها، ووضع المسلمين أمام أمر واقع لا يستطيعون عنه حولا، لم؟ ﴿ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين* ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون* إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم. . .﴾[1].

نعم استجاب الرحمن لاستغاثة نبيه، وتنزل النصر المفاجئ فكان صاعقة كسرت ظهر الكفر، وجائزة ملأت أيدى المؤمنين بالخير، وصبغت وجوههم بالبشر. .

ولم يكن انتصار بدر هذا إلا فاتحة عهد آخر من الجهاد العسكرى تجمعت فيه كل القوى المعادية للإسلام تريد الإجهاز عليه والخلاص منه. .

واستأنف النبى وصحبه العمل لربهم وآخرتهم، إن أطماع الدنيا لم تكن أمل هؤلاء الرجال الكبار، إن الموت من أجل المبدأ الجليل هو ما غرسه النبى فيهم، وهو أسعد نهاية يختم بها مؤمن حياته. . !!

وقد تعلق المسلمون بهذا المعنى فى أيام الرخاء والعافية، فهم فى الأمن والصحة يسألون الله الشهادة كما جاء فى الحديث: «من سأل الله القتل من نفسه صادقًا، ثم مات، أو قتل فله أجر شهيد». وفى رواية «من سأل الله الشهادة بصدق، بلغه الله تعالى منازل الشهداء، وإن مات على فراشه».

وبذلك التجرد لله تكونت أمة وراء نبيها تنصر الحق، وتثأر له، ولا تبالى بأنصبتها من الدنيا، وكانت دنياها فى الأغلب رقيقة لما ارتبطت به من تكاليف، ولما حل بها من غربة، عن أنس بن مالك: خرج رسول الله إلى الخندق فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون فى غداة باردة، صباح شتاء قارس، فلما رأى ما بهم من النصب والجوع قال: «اللهم إن العيش

---

(١) سورة الأنفال: ٧ـ٩.

عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة». وكانوا يحفرون التراب وينقلون أكوامه على ظهورهم، وينشدون:

نحن الذين بايعوا محمدا   على الجهاد ما بقينا أبدا

كان رسول الله حريصًا على أن يكون القتال لله لا لدنيا عارضة، وكان يأبى على رجاله أن ينشبوا الحرب أو يستفزوا الخصوم، فعن عبدالله بن أبى أوفى أن رسول الله فى بعض أيامه التى لقى فيها العدو انتظر حتى مالت الشمس ثم قام فى الناس - خطيبًا - قال: «أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف». ثم قال: «اللهم منزل الكتاب، ومجرى السحاب، وهازم الأحزاب اهزمهم، وانصرنا عليهم».

وفى رواية: «اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب اهزم الأحزاب، اهزمهم وزلزلهم».

وهزيمة الأحزاب حول المدينة شأنها عجيب، فإن قوات الضلال فى الجزيرة كلها أطبقت على المسلمين فى مدينتهم، فإذا المسلمون فى مأزق ضيق خانق ينذر باستئصالهم، وليس هناك بصيص أمل فى بشر، اللهم إلا ما تصنعه السماء.

وكان الظن أن المسلمين قد احتبسوا فى مصيدة هى لا محالة مهلكتهم وكان النبى الضارع لربه ينتظر منه العون لحظة بعد أخرى، فلا أمل إلا فيه..

وبوغتت الأحزاب الطامعة بالأجواء تتمخض عن عواصف أو أعاصير تخلع خيامهم، وتكب آنيتهم، وتبعثهم يطلبون النجاة من حيث جاءوا، بعيدًا عن هذه المدينة المنيعة..

وانطلق صوت الإيمان داخل المدينة التى أشرق عليها الفرج يقول: «الحمد لله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده»..

والثابت فى خلق الرسول الكريم أنه كان شديد التوكل على الله والتحصن به والثقة فيه، كان إذا قاتل قال: «اللهم أنت عضدى، ونصيرى، بك آحول، وبك أصول، وبك أقاتل»..

وكا إذا خاف قومًا قال: «اللهم إنا نجعلك فى نحورهم، ونعوذ بك من شرورهم».

وكان يكره التهريج والفوضى والصخب عند القتال، فالأمر جد، والسكينة أعون على طاعة الله، واستنزال نصره.

والموقف هنا يوجب استحضار قدرة اللّه، وفضله وغناه، وحاجة العباد أبدا إليه، وتوسلهم إليه بالبراءة من الحول والطول، ولقد ثبت أن من مواطن إجابة الدعاء، وقت التقاء الجمعين، أنه كوقت السجود، وإنهاء الصوم، واستغفار السحر، وكل آناء التجرد للّه، وطلب جداه.

والأمة الإسلامية كلها من وراء الجبهة الساخنة تدعو ربها وتسأله النصر، وهى فى الصلوات الخمس تقنت، ترد النوازل، أو تقنت مع كل مطلع فجر طالبة من اللّه تأييد المجاهدين.

ونختار من المأثورات الواردة الدعاء الذى كان يقنت به عمر بن الخطاب وجيوش الإسلام تطوق أبواب المجوسية والنصرانية، الديانتين اللتين طالما أذلتا الجماهير، وطاردتا التوحيد.

««اللهم إياك نستعينك، ونستغفرك، ولا نكفرك، ونؤمن بك، ونخلع من يفجرك..».

«اللهم إياك نعبد، ولك نصلى ونسجد، وإليك نسعى ونحفد[1] نرجو رحمتك ونخشى عذابك، إن عذابك الجد بالكفار ملحق».

«اللهم عذب الكفرة الذين يصدون عن سبيلك، ويكذبون رسلك ويقاتلون أولياءك».

«اللهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات، وأصلح ذات بينهم، وألف بين قلوبهم، واجعل فى قلوبهم الإيمان والحكمة، وثبتهم على ملة رسولك صلى اللّه عليه وسلم، وأوزعهم أن يوفوا بعهدك، الذى عاهدتهم عليه، وانصرهم على عدوك، وعدوهم، إله الحق، واجعلنا منهم».

قال الأمام النووى: «.. واعلم أن المنقول عن عمر رضى اللّه عنه.. وعذب كفرة أهل الكتاب لأن قتالهم ـ يعنى المسلمين ـ كان مع كفرة أهل الكتاب. وأما اليوم فالاختيار أن يقول: وعذب الكفرة فإنه أعم».

ونحن نخالف الإمام النووى رضى اللّه عنه فى اختياره الذى حور إليه دعاء عمر، وعنه نقلنا الصيغة المثبتة هنا ـ فإن كفرة أهل الكتاب هم فى عصرنا، وعصر عمر مصدر البلاء الذى يعانى منه ديننا، وسر النكبات التى حاقت بأمتنا.

---

(١) نحفد: أى نسرع فى الخدمة والعمل.

بل إن الشيوعية زحفت من بعدهم، سواء فى النصف الأيمن للاتحاد السوفييتى، الذى استعمره القياصرة من قبل. أم فى أرجاء العالم الإسلامى الذى أرغمه الاستعمار الصليبى على فتح أبوابه للشيوعية.

كما أرغمه على فتح أبوابه للصهيونية . . .

إن كفرة أهل الكتاب كانوا لا يزالون من أشد الناس حقدًا على الإسلام، ومواريثه، وقيمه كلها.

ونعود إلى الجهاد النبوى كى نزداد بصيرة فيه . . !!

كانت محنة المسلمين شديدة يوم طوقت الأحزاب المدينة، وكان الخناق يشتد عليهم حتى ليكاد يعتصر أرواحهم، ومع ذلك ثبت الرجال فى موقف الحراسة، وأحبطوا المحاولات الكثيرة التى قام الكفار بها لاقتحام المدينة.

وفى يوم من الأيام رأى المهاجمون أن يقوموا بعمل حاسم لإيقاع الهزيمة بالمسلمين، وإحداث ثغرة فى استحكاماتهم ينفذون منها إلى قلب يثرب.

وتلاحق الرجال يصدون هذا التسلل، وكان قد بدأ بعد الظهر، وظل الهجوم والدفاع مستمرين حتى ولى الأصيل وأقبل المغرب والمسلمون لا يستطيعون أن يصلوا العصر، كان الخطر شديدًا على المدينة، ولم يجد الرسول وصحبه بدا من مواجهة العدو حتى تنكسر حدته . .

ووقف الهجوم بعد المغرب لما يئس المشركون من إدراك شىء!

فصلى المسلمون العصر بعد وقتها، وكان النبى صلى اللّه عليه وسلم مغيظًا لما حدث فقال «ملأ اللّه قلوبهم وبيوتهم نارًا كما شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر». وعن ابن مسعود قال: «حبس المشركون رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عن صلاة العصر حتى احمرت الشمس أو اصفرت، فقال: «شغلونا عن الصلاة الوسطى، صلاة العصر، ملأ اللّه أجوافهم وقلوبهم نارًا».

إن هذا التعليق على الهجوم الفاشل يستحق التأمل الطويل، إضاعة وقت العصر كان محنة حقيقية عند النبى عليه الصلاة والسلام، لقد فوت المشركون عليه أن يؤم أصحابه فى جماعة خاشعة تناجى ربها، ترجو رحمته وتخشى عذابه.

لقد كانت سعادة هذا الإنسان الجليل أن يستغرق فى الصلاة، ويسلم وجهه ومشاعره فى عبودية كاملة للهّ رب العالمين.

قال علماء البلاغة: الإطناب فى موضعه حسن، ومثلوا لذلك بإجابة موسى لربه لما سأله: ﴿وما تلك بيمينك يا موسى﴾[1]؟ كان الجواب: عصاى.. ولكن موسى قال: ﴿هى عصاى أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى ولى فيها مآرب أخرى﴾[2]. إنه أطال الرد عمدًا ليطيل الوقت مع العظيم الأعلى، ولماذا يختصر فرصة عمره؟

وخاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام كان يرى الصلاة معراجه الذى يناجى فيه ربه، أو الساعة التى تصل الملأ الأعلى بأهل الأرض، ومن أجل ذلك كانت الصلاة لذته الروحية، ومن أجل ذلك كان غضبه لما شغله المشركون عن موعد لقاء مع من يحب...!

وعلاقة الرسول مع ربه جل شأنه تستحق التأمل العميق فى موقف آخر فقد تعرض المسلمون معه لانكسار شديد فى معركة أحد، وقتل من الرجال العظام سبعون هم من خيرة شهداء التاريخ، وأصيب النبى عليه الصلاة والسلام بجرح نافذ فى خده..

ومع فرح المشركين، وشماتة العدو، وآلام المؤمنين، فقد دعا النبى عليه الصلاة والسلام إلى صلاة جامعة ليحمد اللّه على ما وقع!!

روى الأمام أحمد قال: لما كان يوم أحد وانكفأ المشركون ـ عائذين بعد ما كان ـ قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «استووا حتى أثنى على ربى عز وجل». فصاروا خلفه صفوفًا. فقال صلى اللّه عليه وسلم: «اللهم لك الحمد كله، اللهم لا قابض لما بسطت، ولا باسط لما قبضت! ولا هادى لمن أضللت. ولا مضل لمن هديت..!! ولا معطى لما منعت. ولا مانع لما أعطيت، ولا مقرب لما باعدت، ولا مباعد لما قربت».

«اللهم ابسط علينا من بركاتك ورحمتك، وفضلك، ورزقك..».

«اللهم إنى أسألك النعيم المقيم الذى لا يحول ولا يزول.. اللهم أسألك النعيم يوم العيلة، والأمن يوم الخوف».

«اللهم إنى عائذ بك من شر ما أعطيتنا، ومن شر ما منعتنا».

«اللهم حبب إلينا الإيمان، وزينه فى قلوبنا، وكره إلينا الكفر، والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين».

(١، ٢) سورة طه: ١٧ ـ ١٨.

«اللهم توفنا مسلمين، وأحينا مسلمين وألحقنا بالصالحين غير خزايا ولا مفتونين».

«اللهم قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك، ويصدون عن سبيلك، واجعل عليهم رجزك وعذابك.. اللهم قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب. إله الحق».

هذه دعوات ينسكب اليقين من كل حرف فيها، إن الهزيمة قد تكسر أفئدة الذين يعبدون اللّه على حرف. فأما الذين فنوا فى اللّه وباعوه نفوسهم وأموالهم، فإن عبوديتهم تتألق فى السراء والضراء، وهم يسلمون للّه ما أراد، ويخضعون لحكمته.

وذاك سر الكلمة الرقيقة الغالية التى قالها الرسول لصحبه بعد الهزيمة: «استووا حتى أثنى على ربى عز وجل..».

لما تألم المتنبى لشر ناله من سيده سيف الدولة قال:

فإن يكن الفعل الذى ساء واحدًا   فأفعاله اللائى سررن ألوف!

إن الموقف هنا شىء آخر، فإن النبى الجليل عد ما وقع قدرًا يعلم اللّه حكمته، ولا يجرؤ على وصفه بالسوء، إنه يستعيذ باللّه من شر ما أعطى ومن شر ما منع على سواء، فربما كان العطاء مخوف العقبى، وربما كان المنع ألمًا فى الحاضر، وخيرًا فى المستقبل..

وحصن المؤمن أولا وآخرًا هو اللّه تبارك اسمه...

وقد ختم الرسول دعاءه باستنزال بأس اللّه على المشركين. ثم ضم إليهم الكفار أهل الكتاب، وذاك أن اليهود فى المدينة كانوا يتربصون الدوائر بالمسلمين!

إنهم سيفرحون كثيرًا لما حدث، حسبهم اللّه!

ولا شك أن ضربة أحد كانت موجعة بيد أنها نفضت المجتمع الإسلامى نفضًا شديدًا، فامتاز المنافقون، وانعزلوا بغشهم وخداعهم، وتعلم المسلمون كيف يواجهون الأحداث بإيمان حر، وصف ملتئم..

وشمت اليهود للنكبة النازلة، ولكن لم تمض سنون حتى نزلت لهم أضعافها، ثم تركوا قلب الجزيرة إلى حيث ألقت..

قد يتحدث المؤرخون عن محمد المقاتل، وقد يصفون عبقريته العسكرية ولكنهم يخطئون

الخطأ الجسيم حين يعزلون هذا الجانب عن الجوانب الأخطر والأهم من سيرته الشريفة . .

لقد قاتل حين كان سفك الدماء قصاصًا لضمان الحياة ، أو حين يأمر بقتل مجرم ، ولا يرون الطبيب مقاتلا حين يأمر ببتر عضو.

إن القتال الذى خاضه محمد وصحبه كان فى سبيل الله ، وما كان فى سبيل مأرب شخصى ، أو مجد ذاتى ، أو توسع إقليمى ، أو عرض آخر مما ألفه المؤرخون فى سيرة القادة ، والساسة على اختلاف العصور! !

قالت عائشة : ما ضرب رسول الله بيده خادمًا له قط ، ولا ضرب امرأة ، ولا ضرب بيده شيئًا قط ، إلا أن يجاهد فى سبيل اللّه ، ولا خير بين شيئين إلا كان أحبهما إليه أيسرهما ، حتى يكون إثمًا ، فإذا كان إثمًا كان أبعد الناس عن الإثم ، ولا انتقم لنفسه من شىء يؤتى إليه ، إلا أن تنتهك حرمات اللّه ، فيكون هو ينتقم للّه عز وجل ! !

وقال : «إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق» .

وجاء فى وصفه عليه الصلاة والسلام «ليس بفظ ، ولا غليظ ، ولا صَخّابٍ فى الأسواق ، لو يمر إلى جنب سراج لم يطفئه من سكينته ، ولو يمشى على القصب لم يسمع من تحت قدميه . . لا يقول الخنا ، يفتح اللّه به أعينا كمها ، وآذانًا صما ، وقلوبًا غلفًا . . أُسَدِّدُهُ ـ من كلام اللّه فى هذه الرواية ـ لكل أمر جميل ، وأهب له كل خلق كريم ، أجعل السكينة لباسه ، والبر شعاره ، والتقوى ضميره ، والحكمة منطقه ، والصدق والوفاء طبيعته ، والعفو والمعروف خلقه ، والحق شريعته ، والعدل سيرته ، والهدى إمامه والإسلام ملته . . . إلخ» .

ولنترك هذه المرويات إلى مبادئ أساسية فى الإسلام ، كانت ـ بداهة ـ منطلق نبيه فى جهاده فقد قال تعالى : **﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادًا والعاقبة للمتقين﴾**(1) .

أى أن طلاب الاستعلاء فى هذه الحياة ، وناشرى الفساد فى أرجائها مطرودون من رحمة اللّه . .

والواقع أن أغلب القادة الفاتحين ، والساسة البارزين كانوا من هذا الطراز الذى يضحك من كلمة التقوى ، ويهزأ من الدار الآخرة . .

---

(1) سورة القصص : ٨٣ .

وزبانية الاستعمار قديما وحديثًا من هذا الصنف المقطوع عن اللّه، الجاهل كل الجهل بسبيل اللّه . .

أما نبى الإسلام فهو لا يعرف إلا هذه السبيل ولا يقاتل إلا فيها . .

الإسلام قاطع فى أن الذين يكدحون للدنيا وحدها، ويجحدون ما وراءها لا تفتح لهم أبواب السماء، ولا ينتظرهم فيها خير: ﴿**من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوفِّ إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون* أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون**﴾[1].

إن تلك التعاليم الرفيعة تكشف عن حقيقة القتال الذى خاضه محمد وصحبه! ! إنه للّه أولا وآخرًا، تحمله صاحب الرسالة الخاتمة كى يحمى الحق، ويرد عنه كيد الكائدين! تحمله كى تبقى للركع السجود حرية العبادة، تحمله كى يقال: اللّه أكبر، فلا يجىء جبار وغد ليسد فم العابد الموحد . .

أما من قاتل ليهتف باسمه، أو ليغنم مالا، قل أو كثر، فليس له فى الإسلام نصيب، ولا «بسبيل اللّه» صلة!

إن نبى الملحمة هو نبى المرحمة، هو نبى الصلاة والزكاة، والبر والتقوى شخصية متكاملة، التقت فيها أمجاد الإنسانية الرفيعة كلها . .

وإذا كنا نقدم تفسيرًا للقتال الذى أداره الإسلام فمن حقنا أن نطلب من القوى المعادية للإسلام تفسيرًا لما صنعت ولا تزال تصنع بالإسلام وأمته . .

إن الإسلام اصطدم أول تاريخه بالوثنية واليهودية والنصرانية، فهل تغيرت مواقف المشركين، وأهل الكتاب منه بعد مرور أربعة عشر قرنًا؟ أم لا يزالون يضنون عليه بحق الحياة؟

فى الهند ـ حيث تسود الوثنية ـ نقرأ بين الحين والحين أنباء عن المذابح الطائفية هناك، وهذا هو العنوان المختار لقتل ألوف المسلمين بالجملة . .

وذكر المسلمون هناك أن القتل يستمر عندما يكون المسلمون فى بلد ما أقل من خمس السكان! أما عندما يكون المسلمون حول النصف فإن المذابح تقل لأن المقاومة ترهب، وخسائر المهاجمين تزيد!!

(١) سورة هود: ١٥ـ١٦.

وقد ذبح من المسلمين نحو المليون عندما أنشئت «باكستان» ولا يزال القتل الجماعى مصير المسلمين فى مئات القرى.

هل راجع الضمير الوثنى نفسه فى هذه المآسى؟ هل سيراجع نفسه يومًا؟

وقرأنا من شهور مقتل عشرة آلاف مسلم فى «تشاد»! وهذا الخبر المشئوم نموذج لأخبار كثيرة عن مذابح المسلمين فى أفريقية الوسطى، منذ بدأ النشاط التبشيرى يرسخ أقدامه هناك.

والصليبية الحديثة هى المسئولة عن هذه المجازر الكالحة.

ولقد صرخت فى قطر إسلامى عزيز، وأنا أقرأ هذه الأخبار طالبًا من المسلمين أن يجعلوا للشهداء يومًا من أيام السنة نبكى فيها الدم المهدر والتوحيد المستباح، إن دمنا أرخص دم فى دنيا الناس، ولو أن الكلاب قتلت بهذه الأعداد الكبيرة لغضب لها جماعات الرفق بالحيوان.. !!

وفى أواسط هذا القرن الرابع عشر تحركت اليهودية، وتذكرت بغتة أن لها صلة بفلسطين، وبدأ الهجوم الصهيونى على مراحل.

وفرض على العرب أن يستسلموا، فإذا وجدت رصاصة فى البيت نسفت جدرانه. وسوى بالرغام..

كم يبلغ قتلانا فى فلسطين منذ بدأ غزوها؟ ألوف وألوف..

ومطلوب من المسلمين الآن أن ينسوا ويستكينوا!! إن الذين قاتلوا الإسلام من قديم لا تزال قلوبهم مغلفة بالضغائن، ولا يزالون يبيتون الشر لمحمد، وتراثه..

والغريب بعد ذلك كله أن يتهموا الإسلام بالعدوان، وهم الذين اسودت قلوبهم، وصحائفهم بالمنكر من الأقوال والأفعال.. !!

هل يترك هذا الطغيان يحق الباطل ويبطل الحق؟ هل يترك ليذل العزيز ويعز الذليل؟

لقد أمر المسلمون أن يعتمدوا على اللّه، ويقاوموا هذا العنف، وقيل لهم: لا تقبلوا الضيم، ولا ترخصوا الحق: ﴿فلا تهنوا وتدعوا إلى السَّلْم وأنتم الأعلون واللّه معكم﴾[1].

إن السلام هنا يعنى الضياع المادى والضياع الأدبى، ولا يتقبلها إلا جبان خاسر الدين والدنيا..

(١) سورة محمد: ٣٥.

وهذا سر عشرات ومئات الأحاديث والآيات التى أوصت بالجهاد، وهو جهاد - كما علمت - فى سبيل الله لا إشباعًا لغرور، ولا تمشيًا مع طمع، ولا جريًا وراء جاه، ولا عصبية لجنس، ولا دعمًا لباطل فى هذه الحياة، إنه منع للشرك أن يقهر التوحيد، ومنع للظلم أن يجتاح الحقوق ومنع للقوة أن تمحو العدل. . !!

فى جو من التوقير والتهيب نرمق رجالا صنعهم محمد المحب لربه، الراضى عنه، الفانى فيه، نفخ فيهم من روحه فإذا هم ليوث بالنهار، رهبان بالليل، يؤثرون الله على أنفسهم، وينشدون قبوله بالنفس والنفيس.

هم مجاهدون أتقياء، أشداء على الكفار رحماء بينهم، من قتل منهم مات شهيدًا فى سبيل الله، ومن عاش منهم بقى حارسًا يقظًا لكلمات الله. .

كان الواحد منهم ينزع نفسه من أحضان عروسه ليلقى - فى سبيل الله - حتفه، وهو سعيد. . !!

كان الواحد منهم يذهل عن الأهل والعشيرة - فى مجتمع قوامه العصبية للأهل والعشيرة - ويتغرب بعقيدته، مستبدلا أهلا بأهل، وعشيرة بعشيرة. .

وعندما أنظر إلى دنيا الناس الآن أرى العجب، لقد رأيت كثيرين باعوا دينهم بعرض من الدنيا، وقالوا كلمات الكفر حرصًا على منصب أو تطلعًا إلى آخر، أو تركوا الحق يموت مستوحشًا لأن إيناسه يغضب بعض الكبراء. .

أين هؤلاء الصغار من الرجال الذين رباهم محمد فاستقر بهم التوحيد وكان مطاردًا، وعرفت الآخرة فى سيرتهم، وكانت مجهولة؟؟

فى المجتمع العالمى الآن يقال: إن خطتنا بناء دار لكل شاب، وتمليك سيارة لكل أسرة، وتمكين أفراد العائلة من كذا وكذا من وسائل الرفاهية، ثم ماذا؟ لا شىء. .

الحديث عن الله، والآخرة شىء مضحك. .

أما محمد الوافد الغريب على أنصاره بالمدينة فيتوجه أول ما يتوجه إلى بناء المسجد منشدًا مع البناة المتطوعين من صحبه.

اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة. فانصر الأنصار والمهاجرة. . !!

لقد بدأ يبنى جيش الحق بكلمات من نور، أو من نار، يقول: «لغدوة فى سبيل الله، أو

روحه خير من الدنيا وما فيها» وفى رواية «عدوة فى سبيل الله أو روحة خير مما طلعت عليه الشمس».

«ثلاثة لا ترى أعينهم النار: عين حرست فى سبيل اللّه، وعين بكت من خشية اللّه، وعين كفت عن محارم اللّه».

«رباط يوم فى سبيل اللّه خير من الدنيا وما فيها». «رباط شهر خير من صيام دهر».

«من جهز غازيًا فى سبيل اللّه فقد غزا، ومن خلف غازيًا فى أهله بخير فقد غزا».

«ما خالط قلب امرئ رهج - فزع وقلق - فى سبيل اللّه إلا حرم اللّه عليه النار».

«من بلغ العدو بسهم رفع اللّه له درجة، ما بين الدرجتين مائة عام».

«مقام الرجل فى الصف فى سبيل اللّه أفضل عند اللّه من عبادة الرجل ستين سنة».

«إن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف».

وعن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «يضمن اللّه لمن خرج فى سبيله - لا يخرجه إلا جهاد فى سبيلى، وإيمان بى، وتصديق برسلى - فهو ضامن أن أدخله الجنة، أو أرجعه إلى منزله الذى خرج منه نائلا ما نال من أجر، أو غنيمة.

والذى نفس محمد بيده لولا أن أشق على المسلمين ما قعدت خلاف سرية تغزو فى سبيل اللّه أبدا، ولكن لا أجد سعة فأحملهم، ولا يجدون سعة، ويشق عليهم أن يتخلفوا عنى..

والذى نفس محمد بيده لوددت أن أغزو فى سبيل اللّه فأقتل. ثم أغزو فأقتل! ثم أغزو، فأقتل».

هذه الكلمات إلى جانب آيات الكتاب العزيز، إلى الجانب التطبيقى العملى لرسول ظل نحو ربع قرن - هو أمد الرسالة - دءوبًا منتظمًا فى نصرة ربه كأنه كوكب دوار، لا توقف ولا شرود.. ذلك كله صنع الجيل الذى ثبت أركان الحق، وأرسى قواعده إلى آخر الدهر..

الويل للعالم إذا نامت الشرطة، واستيقظ اللصوص، وقد أسهر محمد ليله وجند رجاله ليحرسوا مسيرة الحق، ويطاردوا العصابات التى ألفت الغارة عليه حينًا بعد حين..

إن الرجل الذى تورمت قدماه من طول تهجده هو الذى انطلق فى ميادين الكفاح المر يضرب ناشرى الخرافات، ويمهد الأرض لغارسى الحقائق..

ونؤكد مرة أخرى أنه ما اعتمد الإكراه وسيلة لغرس عقيدة، بل إن أنبياء اللّه كلهم يأبون هذه الوسيلة فى غرس الإيمان . .

الذى حكاه التاريخ، ولا يزال يحكيه، أن الضلال المسلح هو الذى يقوم بأعمال الفتنة والنهب، وأن موقفه من الإسلام لا ينطوى على مهادنة أو شرف . .

وهنا يجب أن نقدر محمدًا قدره، إن توحيد اللّه سبحانه وتعالى هو الشيء الذى أطبق المرسلون عليه كلهم، ما يعرفون غير ذلك، ما يعرف آدم، ولا نوح، ولا إبراهيم، ولا موسى أن للّه ولدا، هو إله معه، وذلك غير إله ثالث اسمه روح القدس ! !

إن هذا التثليث غريب على السماء، منكور الأصل والوجهة، ومن حق محمد ـ والأنبياء كلهم وراءه ـ أن يصرخوا بالحقيقة الواحدة، وأن يمنعوا كل عقبة تعترضها . .

إن الأرض والسماء وما بينهما تهتف مع محمد وهو يشق أجواز الفضاء بكلمات الأذان . . فإذا استحمق بشر، وظن الآلهة عشرًا فليستحمق ما شاء، ولكن ليس له أن يستغل سلطته، أو ثروته فى إيذاء الموحدين، وإغلاق أفواههم . .

ويوم ينكسر سيفه، وهو يحاول قطع الطريق على قافلة الحق، فليذهب إلى الجحيم، ولا مكان للعطف عليه، أو إهانة الذين نجوا منه .

وفى عصرنا هذا تقع مفارقات مستغربة، هناك من يريد إقناع المسلمين بترك رسالتهم! والتنكر للحق الذى شرفهم اللّه به! والتخلف عن محمد، خير من جاهد لتكون كلمة اللّه هى العليا!

وما أشك فى أن هذا الصوت القبيح مستأجر للشيوعية أو الصهيونية أو الصليبية، ومصيره إن شاء اللّه إلى الاضمحلال والتلاشى، فإن الأوفياء للّه ورسوله سيبقون على العهد إلى قيام الساعة يؤمنون باللّه، ويكفرون بالجبت والطاغوت . .

وقد شاء اللّه أن تقترن الشهادة له بالوحدانية، مع الشهادة لمحمد بالرسالة وذلك لأمر واضح، أن محمدا عليه الصلاة والسلام كان أشد جؤارا بذكر اللّه وحده، ومحو كل أثارة من شرك تتسلل إلى دينه .

لقد تعلمنـا منه أن نعـرف اللّه معـرفة اليقين، وأن نحبـه الحب المكين وأن نتابعـه وهو يردد : ﴿قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى للّه رب العالمين* لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين﴾[1] .

فماذا يقول الآخـرون؟ إنهم يهرفون بما لا يعرفـون! والموعد ساحـة العرض . ﴿إنك ميت وإنهم ميتون * ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون﴾[2] . .

(١) سورة الأنعام : ١٦٢ ـ ١٦٣.

(٢) سورة الزمر: ٣٠ ـ ٣١.

ختـــام

هناك أئمة كبار لهم فى دراسة السيرة الشريفة بصر أطول، وخبرة أعمق، وقد يستطيعون خيرًا منى أن يتحدثوا فى: «فن الذكر والدعاء عند خاتم الأنبياء».

بعضهم قرأنا له من علمائنا الأقدمين، وبعضهم سيتمحض عنه المستقبل لأن التعرف على صاحب الرسالة العظمى، واكتشاف جوانب العظمة فيه لم يتما بعد، على كثرة الكاتبين والدارسين . .

فى شبابى كتبت «فقه السيرة» وحسبت أنى أتيت بشىء طائل فى الإبانة عن عظمة محمد صلى الله عليه وسلم . .

ثم عرفت ـ بعد ـ أن محاولتى كانت محدودة، وإن كانت ـ بستر الله ـ غير مردودة . .

ثم كلفتنى «إدارة الشئون الدينية» بدولة قطر أن أسطر هذه الصحائف فاستجبت.

وكانت عدتى التى اعتمدت عليها عاطفة حب تتحرك فى قلبى نحو محمد صلى الله عليه وسلم، تجعلنى حفيا بمناجاته لله، مشوقًا إلى متابعته، والإفادة منه.

لكن العاطفة الحارة لا تستر البصر الكليل، والهمة القاصرة.

لذلك انتهيت من الكتابة، وقد استولى على الشعور بالنقص، ثم قلت: جهد المقل، ولعل غيرى يتم ما بدأت . .

إن الكتابة فى شمائل محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعبادته، وفروسيته ميدان لا يزال ينتظر الرجال . . وأستغفر الله أولا، وآخرًا.

المحتويات

رقم الإيداع ٨٩٠٢/ ٩٨
الترقيم الدولى 4- 0472 - 09 - 977

مطابع الشروق

القاهرة :٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس:٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت . ص.ب. ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)





شغفت بسير العباد الصالحين، وحاولت أن أقبس منها شعاعًا أستضىء به .

كنت بقلبى مع موسى فى مدين، وهو يحس لذع الوحشة والحاجة . وكنت مع عيسى وهو يواجه مساءلة دقيقة ويدفع عن نفسه دعوى الألوهية . وكنت مع إبراهيم وهو بوادى مكة المجدب يسلم ابنه للقدر المرهوب، ويسأل الله الأنيس لأهله .

غير أنى انبهرت وتاهت منى نفسى، وأنا بين يدى النبى الخاتم محمد بن عبد الله، وهو يدعو ويدعو.

لقد شعرت بأنى أمام فن فى الدعاء ذاهب فى الطول والعرض لم يؤثر مثله عن المصطفين الأخيار، على امتداد الأدهار . .

ولست فى مقام مفاضلة بين أحد من النبيين، إنها حقيقة علمية رأيت إثباتها فى صفحات قلائل، مشفوعة بالدلائل التى تزدحم حولها . .

وفى هذا الكتاب سياحة محدودة فى جانب شريف من جوانب السيرة، جانب الذكر والدعاء .

ما فيه من توفيق هو محض الفضل الأعلى، وما قد أخطئ فيه هو رشح نفسى الأمارة بالسوء . .

